ميراث العهد

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعـــة الأولـــى

الناشر : المكتب المصرى الحديث

البريد الإلكتروني : almaktabalmasry@hotmail.com

القـــــاهـــرة : ٢ شارع شريف عمارة اللواء ت : ٣٩٣٤١٢٧

الأسكندريـــة : ٧ شـــارع نوبـــار المنشيـــة ت : ٤٨٤٦٦٠٢

المطابـــــــع : طريق مصر اسكندرية الزراعي ك ١٠ ت : ٧٤ / ٤٤٤١٠٧٠

ميراث العهد

عيسى بيّومى

المكتب المصرى الحديث

"ليس أصعب على الأنسان
من ضرورة ألزم بها نفسه
أو واجب لم يحتمه عليه
غير ضميره"

الفصل الأول

أرض الأجداد

كان أبو الفضل يتقلب فى فراشه كالمحموم، لا يطمئن لحظات إلى جانبه الأيسر حتى ينقلب إلى جانبه الأيمن، يحاول أن يستريح إلى ظهره قليلاً ثم لا يلبث أن ينهض جالساً، ليعود مرة أخرى متوددا للنوم بكل وسيلة يعرفها، تارة يستذكر البسملة والمعوذتين داعيا الله أن يسكن سريرته، وتارة ينهض ليشرب من إبريق ماء يجاوره مصدقا وهم العطش، وثالثة يقوم متحسساً طريقه بين جنبات الدار التى اختلفت أبعادها فى ذاكرته فضاقت وانخفضت توشك أن تطبق عليه، حتى ألوانها الخفيفة أثقلها الليل على بصره وشعور الوحدة القاتم الجاثم فوق صدره.

وتنبه لقدمه وهى توشك أن تصطدم ببعض الأوانى النحاسية ملقاة إلى جوار مخبز الدار، فعاد أدراجه لحجرته مخافة أن يوقظ زوجته أو أحداً من أبنائه فتتبدى لهم معاناته وتردده فى اتخاذ قراره.

كيف يأذن لأسرته العريقة أن يتفرق شملها وهو حى؟ أن يتبعثر أفرادها الذين توحدوا على مر الزمن وتواصلت سيرتهم بين أسر القرية وما جاورها من بلدان؟ لا مفر من تلك العاقبة إن وافق أبناءه لما يرغبون وهى نفسها العاقبة إن قاومهم ورفض منطقهم.

لهذا كانت حيرته، أيأخذ بأيديهم إلى الشتات أم يتركهم له؟ وتمنى لو أن والده إلى جواره فى محنته يشير عليه بما يصنع أو أحدا من

الأجداد يرتكن لحكمته ويطمئن لسنده، لكن القدر لم يهيىء له أحدهم وأبى إلا أن يمتحنه هذا الامتحان العسير. لو أن حجة الأرض لم تكن بحوذته ووصية الأجداد لم تؤل إليه ..وتلك الكلمات من فم والده لم تذب فى ذاكرته وتختلط بنسيج إدراكه، ألا يفرط فيما استخلفته عليه أجيال العائلة، وأن يوصى ابنه بنفس وصيته حين يقترب أجله ..بأى شىء إذن يوصيهم حين موته وكلهم يأبون إلا مخالفته ومناهضة رأيه؟ كيف يلقى من سبقوه إن فرط فى خلفهم واستسلم لتهديد من حوله أن ينفضوا عنه إلى رزق أوسع وملء أوفر وعالم خارج قريتهم ملىء بالعجائب.

لقد حاول عبثا أن يبدد تلك الأهواء من نفوسهم ويؤكد لهم أن جوهر الحقيقة فى أعماقهم وليس فيما يذهلهم من أخيلة، لو أنهم شاءوا لحققوا بإرادتهم ما يسعون إليه بإرادة سواهم، هم ليسوا غرباء عن طريق النجاح ولا مستحدثين.

وكان جوابهم "نريد مالاً يكفى"، ولا يكفيهم سوى ثمن الأرض تباع ويقسم بينهم.

وينصت إليهم وهو حسير لما ستؤول إليه وصية الأجداد وسير الصالحين حين تنمحى فى الأبناء عظائم الطموح وجلائل الأحلام. وتساءل أعلة ذلك فى عقولهم التى حرص أن ينيرها بالعلم أم أن

تربيته لهم جاوزتها الحكمة فانصاع كل منهم لذاته بلا تبصرة بواجبه، أم أنه أنجب ذرية فاسدة قضاء عائلته محتوم بها؟ وتشكك كثيرا فى ذلك، فما كان يمكنه حرمانهم من علم أو رعاية لائقة، وكان دائما ما يطلعهم على أعمال الأجداد مما يشرفهم ويستنهض هممهم، وأمهم من أفضل النساء.

وخطر بذهنه سبب هذا المصاب فتسابقت على لسانه اللعنات، بدءا بالمعلم عبد الصمد صاحب قمائن الطوب الأحمر، ثم الحاج مدين تاجر القرية المعروف وعضو المجلس المحلى المرموق، ثم الكثير من أهل القرية السذج والغافلين.

فما كان أغناه عن هذا الهم العظيم وكم كان أغناه استغراقه فى عمله لا يطلب من الدنيا غير الستر والعافية والخلف الصالح وأن يحفظ لمن بعده ما حفظه له من قبله، حين كان يحتضنه النوم بمجرد أن يستدعيه.

لقد ابتدره المعلم عبد الصمد حينئذ بقوله:

-ما رأيك يا شيخ أبا الفضل فيمن يشترى أرضك بعشرين ألف جنيه للفدان ؟

وساد الهدوء والصمت فجأة بين الجالسين على القهوة ممن وصل سمعهم هذا السؤال المفاجىء، ثم انتقلت عدواه للآخرين وقد شعروا أن شيئا غريبا قد نشأ، كان شائعا بينهم جفاء أبى

الفضل لعبد الصمد وشيعته وتجنبه مجلسهم إلا ما وقع بحكم المصادفة. وفى الحق كان الرجلان على النقيض فى كل شىء بدءا من مظهرهما الخارجى، فأبو الفضل طويل القامة سمح الملامح قوىّ الأثر يحترمه حتى من لا يعرفه ورث عن أسلافه مجداً وسؤددا لم تهتز آثاره فى النفوس رغم اعتداء الزمن وقوى الظلم الغاشمة، فدائما يأتى من عائلته من يسترد ما اغتصب ويعيد لمجدها سابق عهده ولعزتها سالف أثرها، لذا وقر فى الأذهان فضلها مهما تتابعت الأجيال واختلطت العصور تطالع ذلك فى وجه أبي الفضل فتطمئن أن رؤياك صادقة، أما عبد الصمد فكان قصير القامة منتفخ البطن والوجه والجيب معروف ببدعته حرق أديم الأرض إلى طوب أحمر وقمائنه منتشرة فى أى مكان يقتنص أرض أهله، وهو غير معروف الأهل، أصله محتمل بين القرى المتناثرة من هؤلاء الذين وجدوا أنفسهم فجأة على خريطة الزمن الحاضر يستوحون من طبائعهم حيلا تجعلهم يقفون كالند لأمثال أبي الفضل الذى نظر إليه مستخفا بسؤاله وقال:

-إن الذى يشترى أرضاً بضعف ثمنها لابد أنه يضمر لها سوءاً.

وكان عبد الصمد يعلم مكانة أبي الفضل فى القوم فحاول أن يبدو كيسا على غير طبيعته فقال :

-لا أنكر أننى سوف أربح من وراءها لهذا أعرض فيها هذا الثمن المضاعف لكنك لن تجد أفضل من عرضى على الإطلاق.

قال أبو الفضل:

-أنت تربح يا عبد الصمد حقا ولكنه ربح فاحش، لأنك تبيع المستقبل مغلفا بمسمى مختلف ولون مثير ..ثم من أخبرك أن أرضنا للبيع؟

ورد عبد الصمد وقد بدأ يفقد كياسته الزائفة لاتهام أبي الفضل له:

-ليس لك حق فى اتهامك هذا يا عم أبا الفضل، كان والدك يرحمه الله يحسن معاملتنا لذا نأتى لبنيه نعرض الكثير ..أليست قمائن الطوب هذه التى تتهمنا بها توفر للكثيرين عملا يرزقون منه، وتسهم في البنيان والعمار؟ وما العيب فى الربح طالما أنها ليست سرقة أو عملا حراما؟ أم أن رواج عملى واتساع نشاطى أمر لا يستسيغه سيد الناس؟

وتدخل "بركة" صاحب القهوة فى الحديث وهو يجذب مقعده مقتربا نحو المتحدثين ويرتفع صوته الغليظ مدافعا عن عبد الصمد:

-يا عم أبا الفضل قد كان المكان موحشا لا يهوى إليه غير أجراء القرية الفقراء يحتسون الشاى بقروش معدودة ويمضون حال سبيلهم ..أنظر الآن إلى القهوة ممتلئة بالأسطوات من سائقى سيارات النقل

وصناع الطوب ومشتريه، لا ينقطع عنا الناس ليل نهار، القهوة أصبح فيها التليفزيون والفيديو ..هذا الرواج للمعلم عبد الصمد فضل فيه.

وتجرأ أحد السائقين من أهل البلدة ممن كانوا يتابعون الحديث فى شغف فقال مزهوا:

-كنت سائق أجرة قليل الحال لا أكاد أطعم الأفواه المفتوحة فى دارى ..راتبى الآن خمسمائة جنيه فى الشهر وأصبح حلم أسرتى بيتا من الطوب الأحمر قريب المنال والسبب فى هذا عبد الصمد الرجل فى هذا لا يلام فهو مصدر رزقنا وبيع الأرض له استمرار لسبب الرزق كما أنك يا عم أبا الفضل ستربح الكثير.

كانت عينا أبي الفضل قد انتقلتا من فوق وجه بركة الجامد الرصين واستقرتا لحظات تتابعان ملامح المتحدث الأسطى محروس التى لم تخف قلقه، وظلت الآذان تتربص بلسان أبي الفضل كيف يفصح عن دخيلته، لكن الجميع انتبهوا فجأة إلى الأستاذ عطية ناظر المدرسة الإبتدائية وهو يقطع انتظارهم قائلا فى حكمة:

-على المرء أن يهتم بمستقبل أبنائه يا سادة والشيخ أبو الفضل لديه أولاده بارك الله فيهم، قد كان قدوة لنا فى تعليم أبنائنا حتى البنات فيهم ..ربما لهذا يا أبا الفضل فكر عبد الصمد في أرضك.

وكان أبو الفضل يعرف عطية عن ظهر قلب منذ كان مدرسا صغيراً بأسلوبه المتحذلق المتسم بالمكر، فرمقه بنظرة نافذة وهز رأسه ونهض من مجلسه وهو يقول دون أن يخص أحداً منهم بقوله:

-علىَّ أن أسرع إلى الأرض لأطمئن على عمل الأجراء وأوفيهم حقهم ..السلام عليكم.

ولاحقه عبد الصمد قائلاً:

-لكنك لم تفدنا بجوابك ..هل ستفكر فى الأمر أم نبحث عن أرض أخرى؟

والتفت إليه أبو الفضل وهو يخرج من باب المقهى ولم يرد..

ودارت عينا عبد الصمد فيمن أحاطه من رواد المقهى وهو ينفث غيظه قائلاً:

-ما عرضته عليه من ثمن فوق ما يمكن أن يحلم به مهما شطح خياله ورد "بركة" وهو يهش عن وجهه ذبابة سوداء كبيرة مستخدماً بوصة جوزته:

-هذه العائلة لا تفرط في أرضها يا معلم، لكننى سأبحث لك عمن يقبل بأقل مما عرضت من ثمن وتبقى لى العمولة.

فقال عبد الصمد:

-أنت لا تفهم أهمية أرض هذا الرجل، سوف توفر كثيراً من التكاليف والحكومة متشددة هذه الأيام مما يجعل التكاليف زائدة بطبيعتها.

ويبدو أن الجميع قد فهموا إشارته فقد سرت بينهم همهمة الموافقة أكدها الأسطى محروس بقوله:

- نعم، حتى مخالفة المرور لا يقبل فيها العسكرى دون الجنيه ..لكن طالما فيها خير فليعم على الكل.

فقال عبد الصمد:

-مع وجود أمثال أبي الفضل لن يجد أحدنا خيراً.

وتدخل فى الحديث الأستاذ عطية قائلاً:

-هؤلاء قليلون يا معلم ويتناقص عددهم وتضعف قوتهم لأنهم ضد التيار والمصلحة العامة، الواقع أقوي ..كنت وأنا مدرس منذ عشرين سنة أعطى الدروس الخصوصية لأولاد أبى الفضل وأمثاله لمجرد حسن المعاملة، الآن لا أقبل فى الساعة أقل من خمسة جنيهات ويتسابق الجميع للفوز بساعة ..نعم والله هذا صحيح! سوف يقبل أبو الفضل عرضك الذى أهمله بازدراء وسوف يعتبره باب الفرج حين يسأله ابنه الدكتور كيف يؤسس عيادته والآخرون كيف يشقون طريقهم فى الحياة ..ناهيك عن زواج البنات.

ورد عبد الصمد فى غموض:

-إننى فى عجلة من أمرى.

ولم يترك عطية الفرصة تتبدد من عالمه فعقب قائلاً:

-دعنى أحاول بطريقتى وحقى محفوظ.

ولم يبد عبد الصمد راضياً وهو يعلن وقد استعد للإنصراف:

-حقكم جميعاً محفوظ وهل أكلت حقا قط؟!

ولم يكن قد تبقى فى ذاكرة أبى الفضل من حديثهم وهو يسرع خطاه نحو أرضه سوى كلام عطية هذا الثعبان الماكر، فقد مس نقطة ضعفه قاصداً أو بدون قصد ليس لحاجة أولاده إلى المال ليستقروا لمستقبل مأمول وقد أفلحوا فى تعليمهم فأصبح كمال طبيباً وحسين محامياً ومختار من التجاريين وجميلة حصلت على الثانوية العامة وتنتظر حظها من التعليم العالى وأختها الصغرى أصيلة فى الطريق ..لم تكن حاجة الأولاد إلى المال هى ما مسه عطية من نقطة ضعف وإنما أمر أعمق من هذا وأكثر تعقيداً حاول يائساً أن يستوضحه فى نفسه أو حتى يمحوه فلا تؤرقه آثاره كلما تذكرهم وانشغل بهم ، شىء كان يتطاول على فرحته كلما شاهد تقدمهم ونجاحهم وينغص عليه شعوره بالزهو كلما ذكرهم أهل القرية بالإكبار ..حين كان ينظر إلى حاله وما آل إليه من الوحدة وانغماسه فى المتاعب دون معين،

فكل من أبنائه مشغول بنفسه بعيداً عنه وعن طريق أجداده من قبل، حتى جميلة تحلم بيوم دخولها للجامعة لتنتقل مع إخوتها إلى البندر وتحيا حياة بناته، وتتحول الدار الواسعة حينئذ إلى فراغ لا يضم سوى زوجته وابنته الصغرى إلى حين.

وكان السؤال الخفى الذى أرهبه هو هل أخطأ حين مهد لهم دروب التعليم فباعد بهم عن الأرض ففقدوا من ثم عطر طينها الساحر وتناءوا عن أثرها المشفى الغلاب الذى لا ينفك إساره ما عاش الإنسان ولا يدركه إلا من وضع رأسه.عليها فاستراح وامتدت ذراعيه نحو ربوعها محتضناً واختلط ترابها بعرقه ودمه وسعادته وشقاه؟

وأنقذه من تساؤلاته وخواطره صوت أحد الأجراء يرحب بمقدمه بصوت مرتفع يصل لرفاقه فينتبه منهم الغافل وينشط فيهم الكسول، وأدرك أبو الفضل أن عمق خواطره أبعد من كل مسافة تباعده عن أرضه وإن كانت هى نهايتها، إذ بالرغم من سيره بين الغيطان ما يقرب من ساعة إلا أن الزمن أنقهر بوطأتها فحملته وانتهت به فى ثانية ..وبدأ يميز حديث الرجل وهو يقول مقتربا منه:

-الأرض أمست جاهزة للبذور يا حاج، هل ستبذرها فليبينى كالآخرين ..إن غلة الفدان منها تزداد أردبين.

ولم يخدع اتجاه الحديث أبا الفضل لغير ما يهمه من مراجعة ما بذله الرجال من جهد زمن تأجيرهم، وتفقد ببصره ربوع أرضه يلحظ تسويتها ومحاذاة خطوطها ونظافة سطحها فداخله شعور بالأمان، لكن ذهنه لم يكن فى صفائه المعتاد ليخوض مع الرجال جدلا لا طائل منه ينتهى دائما بأن يحسن أجرهم ويجلد اتفاقه معهم ليوم جديد ..والتفت إلى أحدهم وقد وجه إليه الحديث وهو ينشر جلبابه النظيف فوق جسده مستعدا للرحيل:

-ألم تفكر يا حاج فى زراعة أرضك بالخضار أو الفاكهة بدلا من القمح؟ المكسب منها يفوق علاوة على سرعة جنيه ويسر توزيعه.

وكان مزاج أبي الفضل يزداد قتامة فلم يعثر فى نفسه على إجابة لأى سؤال ألقى إليه ولو محاولة لحصر شروده الطارىء ولكن أحدهم أرغمه على ذلك إذ قال وهو يتأكد من وجود سجائره فى جيبه ومعها الولاعة التى تعمل بالحجر

-على فكرة يا حاج، مدين أفندى مر من هنا وسأل عنك، قال إنه يريدك لأمر هام وقلنا له ربما تكون جالسا فى القهوة أو بالجمعية تشترى البذور..هل قابلك؟

قال أبو الفضل محدثا نفسه

-ما الذى يريده مدين؟ موسم الانتخابات لازال بعيدا.

وضحكوا كل بطريقته فى فتح فمه، وكأنما هناك سبب واضح للضحك ..ثم عاد المبلغ ليقول بحذر

-الله أعلم، هؤلاء الناس لا تعرف لهم غاية واضحة.

ورمقه أبو الفضل مشفقاً ثم جثم مزاجه بحيرته وسواده فلم يلحظ انفضاض الرجل من حوله وتبعثرهم كل فى اتجاه، وقد نسى كل منهم بعد خطوات ما سمع وامتد بصر أبى الفضل مستوعباً مداه الأرض المنبسطة من حوله بسمرة طينها والماشية تتجمع لطريق العودة والسماء بعلوها وسعتها تتناهى مع الموجودات إلى حيث تنتهى ومر فى طريق عودته بمقابر القرية فتذكر الأجداد وساورته بعض الطمأنينة لذكرهم فبدأت تنقشع عن وعيه دواعى الحيرة ويبصر طريقه لداره، وبينما هو يقترب من غايته إذا بخطوات مسرعة تطارده وصوت يعلو فى أذنيه كلما اقترب منه صاحبه وكأنه مجبر أن يأسر إدراكه بغايته.

-يا أبا الفضل ..يا شيخ أبا الفضل.

ونظر خلفه فميز ملامح "مدين" وهيأته المتأنقة وابتسامته التى نادراً ما تفارق فمه حتى مع شهيقه المتلاحق وكأنها جزء من ملامحه، وما أن اطمأن مدين لتنبه أبي الفضل له وانتظاره لمقدمه حتى هدأت خطواته المتسارعة ثم قل والمسافة بينهما تنعدم

-لقد أرهقنى خطوك الواسع يا رجل يصعب اللحاق به إلا بالنداء إن أمكن.

انبسطت أسارير أبي الفضل بعض الشيء وقال

-أنت دائم المبالغة يا مدين، أين نحن من جرى الشباب، مررت فى طريقى على المقابر فشعرت أنها أقرب إلىّ من بيتى ليس فى المكان والزمان فحسب وإنما بسكانها الذين تركوا لنا هذه المسؤولية الهائلة ..إننى لأتمنى يا أخى لو أقابل أحدهم فأسأله كيف كان يحتوى حياته بما فيها من صعاب ويظل مرفوع الرأس.

وأوشك مدين أن يفقد ابتسامته وأذناه لا تفقهان حديث صاحبه، لكنه احتال على ذلك بقوله وهو يسير بجواره

-مررت على القهوة بحثا عنك وسمعت لغطاً كثيراً حول ما دار بينك وبين عبد الصمد ..هذا الرجل قد غرته أمواله.

وأسرع أبو الفضل بمقاطعته قائلاً

-لا فائدة من هذا الحديث يا مدين، كل يحسب الدنيا على هواه.

-نعم، لو عثرت عليك قبل حديثه معك لحذرتك من مقاصده وأنا أعلم قيمة الأرض الحقيقية.

-المسألة واضحة يا أخى، كيف تظنه يقبل على مخالفة القانون بهذه الجرأة لولا أن ما تجلبه الأرض بصناعة الطوب لا يمكن التنازل عنه.

وآثر أبو الفضل أن يغير مجرى الحديث فقال

-أخبرنى الأولاد فى الغيط أنك كنت تبحث عنى.

قال مدين فى تردد

-إنه أمر يتعلق بالأرض أيضا ولكن ليس لغرض الإفناء والهدم.

-وانزعج أبو الفضل لمطاردة هذه الفكرة ليومه وقال فى حدة

-أليس للناس حديث غير الأرض وياليته حديث خير ..ما الذى جرى؟ ألا يوجد بالبلد سوى أرض أبى الفضل؟.

وبدأ مدين يوجه الحديث لغايته فقال

-فيما ندعيه نعم، أرض أبى الفضل هى الأهم والأصلح، وهذا سر لا يعرفه غير أعضاء المجلس المحلى فى لجنة المشروعات بالمحافظة وقد استقر رأينا اليوم أن نفاتحك فى الأمر وأوفدونى إليك لأنهم يعرفون صلتى بك.

-لماذا لا تدخل فى الموضوع مباشرة يا مدين أنت تعرف أنى لا أحب اللف والدوران وطالما الحديث عن المصالح فهات من الآخر فذلك أريح لنا.

ولم يؤخذ مدين بصراحة محدثه فقد أعتادها منذ زمن ولولا أن كثرة اللجاج والمحاورة فى المجلس أكسبته طبع التفكر والتخفى فى مقاصده لأفصح لأبى الفضل بما يريد من البداية فذلك أيسر السبل إليه ..قال وهو يرقب ملامحه بانتباه وحذر

- نريد أن نشترى أرضك بسعر لن يخطر ببالك مطلقا ولأنك طلبت الصراحة فلن أضيع وقتك فى المساومة وأخبرك بأقصى ثمن معروض لها وهو ثلاثون ألف جنيه للفدان وهو يزيد عما عرضه عليك عبد الصمد كما عرفت، علاوة على أننا لن نحرقها أو ندمرها كما يهدف هو وأمثاله حتى يطمئن ضميرك ويهدأ بالك من هذه الناحية فأنا أعلم يقينا حبك للأرض وتقديسك لها.

فطن أبو الفضل لما يسمعه أنه مجرد أوهام عابرة انشقت من ذلك النهار الغبى الذى حاصره وحصره، لكنه قلّب بصره فى بيوت القرية المتراصة عن يمينه والدخان يتصاعد من إحماء أفرانها، والترعة ممتلة يساره ينزح عنها زوارها من أفواج البط والوز وأفراد الجاموس والحمير، وضرب الأرض برجله فجاوبته برد فعلها من أغبرة وأيقن أن ذلك لا يحدث عن وهم. ولما استبطأ مدين جوابه فسره بالتردد وعزم أن يؤثر فيه ويحرك إرادته بطريقة غير مباشرة فقال

-يا حاج أبا الفضل إلى متى يظل الدكتور كمال يعمل فى مستشفى حكومى ولا يكون له عيادة خاصة تليق باسمه، ألا تحسبه يطمح لاستكمال علمه ودراسته فى الخارج كما يفعل علية القوم، والله إنه لا يقل عنهم شرفا ومكانة، أم إنك علمته ليصبح طبيباً كأى طبيب كهؤلاء الذين تصرف عليهم الحكومة وينتظرون منها المنح ..لا تؤاخذنى فأنا أحدثك بمنطق الصحبة.

أجابه أبو الفضل باقتضاب

-ربع الأرض يسترنا، كما إننى لا أستطيع أن أميز أحداً من أولادى عن الآخرين هكذا أوصانى والدى رحمه الله.

-لكننى بما أعرضه عليك تكفل للجميع تحقيق آمالهم ثم تستريح أنت وأمهم من عناء الأرض ومتاعبها، لقد كبرنا يا أخى وحقت لنا الراحة فإذا كنا قادرين أن نكفلها لنا ولأولادنا فما الضرر؟

وكان أبو الفضل يبتعد عن مدين بعالمه والآخر يظنه يقترب ..إذ قال

-الأرض هى آخر ما تبقى لى من عالمى ..والذى يواجهه أمثالى اليوم غريب، فما كنت أستطيع حرمان أولادى من حظهم فى العلم والدراسة وكان نتيجة ذلك أن أصبحت وحيداً غير قادر أن أدلهم على خير أرضهم أو أسألهم العون فيما جهلوه، ويمضى بى العمر وأنا دائم الهروب من تلك المشكلة مرتكناً لما تحكم به الأقدار

..ثم تأتى أنت أو سواك ظانين أن الأرض أصبحت عبئاً لا أستطيع احتماله وتتساءلون فيما بينكم ومن بعده يكفلها إنها حتما للبيع إن لم يكن فى حياته فبعد مماته فما سمعنا بطبيب يفلح..

وقاطعه مدين

-لم أقصد لتقليب مواجعك فلنا جميعاً نصيب مماثل، إنما أنا مفوض لعرض الأمر عليك وظننت أن فيه خيراً وقد فاتحت الدكتور كمال وقد قابلته فى طريق عودتنا من المركز فأبدى حماسا وإن كان متخفياً لعلمه أن الرأى رأيك أنت.

-ألم يسألك كمال عن سبب هذا السعر الذى تعرضونه علينا؟

-يبدو أن الأرقام أذهلته عن البحث عن سبب لكننى سأطلعك عليه شرط ألا يعرفه سواك حتى يتم البيع.

-إن كلامك عجيب حقاً.

-المسألة ببساطة أن مشروعا كبيرا سينشأ فى محافظتنا وقريتنا أحد المواقع المختارة لتنفيذه وأرضك أكثر الأراضى ملائمة من ناحية المساحة والملكية وامتدادها للطريق العمومى والذى سيتم توسعته وإعادة رصفه ..فى حالة رفضك سيحاول غيرى فى بلدان أخرى ..علىّ أن أخبرك أن لنا شروطا فى حالة إتمام الصفقة ولنا أسلوب فى

تحرير عقد البيع لكننا سنتكلم عن ذلك فى حينه ..صدقنى لن يعرض سعر أعلى مما ذكرت لك فى أى مكان آخر.

قال أبو الفضل متفكرا

-لكن الحكومة يا مدين إذا أرادت أرضا للمنفعة العامة نزعت ملكيتها وحددت التعويض الذى يناسبها وما تقوله لا يتفق مع هذا العرف.

أفاده مدين بصوت خفيض كالهمس فى الأذن

-إنه ليس مشروعا حكوميا يا أخى ..وإنما مجموعة من المستثمرين العرب ونحن لنا دور فى الموافقة على موقع المشروع وتقديم النصيحة ..والأفضل فى هذه الحالات أن نبحث لهم عن الأفضل، والباقى مفهوم.

وردد أبو الفضل فى همس كهمس رفيقه

-نعم الباقى مفهوم.

واستفسره مدين فى لهجة المستيقن

-هل أبلغهم بموافقتك على بركة الله؟

ساد الصمت بينهما زمنا غير قصير والرجل متحير فى تفسير تردد أبى الفضل ثم انتبه إليه وهو يقول

-هل تعرف كيف أرى نفسى بينكم هذه اللحظة من عمرى؟ كالذى استكثر عليه الناس زوجه فأخذوا يساومونه عليها ويبالغون فى العرض والمساومة وكلما زاد الصمت افترض الناس أنه ينتظر المزيد وقد غاب عن إدراكهم أن القيمة هنا لا تحصى ولا تعد ..هذا يذكرنى بحكاية سمعتها وأنا شاب من رجل عالم كان يأتى لزيارة والدى ..تعالى يا مدين نجلس على القهوة قليلاً فقد تعبت وسأحكيها لك.

وكانا قد اقتربا من القهوة فتخيرا إحدى الموائد الخالية وجلسا بعد أن ألقيا السلام، وعينا "بركة" ترمقهما بفضول حتى مضت لحظات قصيرة ثم نهض يحييهما ويوجه حديثه لمدين قائلاً

-أراك عثرت على الشيخ "أبو الفضل" لا بد أنه أمر هام حتى تفتش عنه بهذه الهمة.

ولم يجد استجابة لمحاولته أن يحشر نفسه بينهما فآب إلى مجلسه وهو يصرخ على رجب صبى القهوة، واستأنف أبو الفضل ما انقطع من حديثه وهالة من الذهول تحيطه عمن حوله .. حالة تشبه ما قبل النوم مباشرة وربما ما قبل الممات ..قال

-حدث مرة فى إحدى قرى الإنجليز أن باع رجل امرأته وهو سكران وكان فى حال من الفقر والعوز شديدة ولا يجد عملا يستره وأهله

ويبدو أن زلته وهو مخمور لم تغفر لـه عنـد المشـترى الـذى طالبـه بتنفيذ ما اتفقا عليـه وأمـام ذلـك الشـطط اسـتجابت أمرأتـه لطلـب المشترى ونزحت معه من تلك القرية إلى حيث لا تعلم ..ولما أفـاق الرجل لنفسه وقد رحلت عنه أدرك شـناعة فعلتـه وبـدأ يبحـث عنـها ولكن دون جدوى ثم استسلم لمصيره، وحدث أن ابتسـم لـه الحـظ فأصبح أغنى تجار الإقليم واختاره الناس والياً عليهم وذاع صيتـه ثـم بدأ ينكشف أمره لمن لا يعلم وتعـاقبت عليـه الكـوارث فـى حياتـه الخاصة والعامة حتى مسه الجنون وكان ذلك لسبب قديم لـم يغفـره له القدر بالرغم من بعد السنين وغربة المكان وتحـول فـى النهايـة إلى شريد طريد يهرف بجنـون أنـه كـان يومـا عمـدة البلـد والصبيـة يقذفونه بالحجارة.

نظر مدين إلى أبى الفضل وهو ينهى حكايته ثـم قـال مدعيـا الغفلـة عن المعنى الذى قصده

-معاذ الله يا حاج أن نكون قد قصدنا كرامتك.

فرد عليه أبو الفضل فى هدوء

-يا مدين المعنى واضح، الخلط فى قيم الأشياء يفسد نسيج الحيـاة، لا فرق بين زوجة أو أمانة أو كلمة شرف ..أو أرض تعرض للبيع فـى غير معرضها المقبول ..الأرض تـزرع هـذا شـرط أن تملـك كمـا أن

الزوجة تصان هذا شرط أن تستنكح هل فهمت؟ لا يمكن أن نخدع منطق الحياة وناموس الخالق لأننا لن نخدع فى النهاية سوى أنفسنا.

قال مدين وقد بدأ يضجر الحديث

-فى الواقع يا أبا الفضل أنت تبالغ فى تصوير الحاصل، لا أحد من حولك يتحدث تلك اللغة، والعالم وضع لنفسه مقياساً واحداً لتقدير كل شىء وهو المال فاستراح الجميع.

وابتسم أبو الفضل بسخرية مقصودة وهو يقول

-هذا ما قصدته بحكاية الرجل الإنجليزى لكنك لا تحب أن تفهم ..اسمح لى فقد أذن المغرب ولا أحب أن يستبطئنى أهلى.

-سأمهلك بضعة أيام فهذا حقك علىّ كصديق فالأمر يستحق المراجعة ..صدقنى.

وكان بركة يلاحظ انهماكهما فى الحديث من بعيد وما أن انصرف أبو الفضل حتى نهض متوجهاً نحو مدين ثم التصق به وهمس فى أذنه

الحال لا تبدو كما ينبغى بينك وبين صاحبك.

قال مدين محاولا التنفيس عن سخطه

-إنه يمر بأزمة ولا يرى طريقه واضحاً.

تشجع بركة قليلاً فسأله محاولاً إشباع فضوله

-لابد أن الأرض شغلت بعض الحديث؟ بالتأكيد سمعت بما دار بينه وبين عبد الصمد؟

فأجابه مدين بقليل من الإكتراث

-أنت تظهر اهتماما غير مفهوم بالمسألة هل وكّلك عبد الصمد مدافعاً عن مصالحه؟

وحاول بركة الدفاع عن نفسه قائلاً

-إن مصالحنا فى استمرار أعماله بالناحية فإذا هجر القرية إلى سواها ساءت أحوالنا.

تمتم مدين مظهراً عدم رغبته فى استمرار الحديث

-كل يبحث فى تحقيق مصالحه ..إلا هو.

وكان أبو الفضل فى هذه الأثناء قد عرج على المسجد فصلى المغرب ثم توجه إلى داره وطنين النهار يعوى فى أعماقه فيذهلها ويقضى على ما تنسمه فى صلاته من صفاء.

وللحق كانت الأرقام التى ذكرت أمامه تبعث الشك فى نفسه وترغمه أن يتساءل عن فحوى ما يبغيه الناس فعلا، هل هى الأرض أم شيء آخر يساومونه عليه بأى مال؟ إن الربح الوفير الذى يترصدونه بسببها لا يبرر حرصهم الشديد أن ينزعوه عنها، ربما لهذا يتصدى بالرفض القاطع من أعماقه وليس لمجرد أن تنجرف الأرض فتفقد

مصداقيتها فى زعمه، أو تنطمر فيها الحياة الرائعة بروائح الأسمنت والزلط وأسياخ الحديد وخوابير البناء ..لقد تربصوا به فى لحظة من عمره ظنوه ضعيفاً بسنه وانشغال أولاده بحاضرهم القريب. وتذكر وهو يقترب من باب داره أن "مدين" قد أطلع ابنه "كمال" على الأمر وتمنى لو أنه لم يفعل فهو أحوج ما يكون للراحة وأكره ما يكون للجاج ومحاورة.

اقتربت منه زوجته تطمئن على الأحوال وتطمئنه على من فى الدار، لقد حضر الأولاد كلهم وتجمعوا كما اعتادوا فى نهاية الأسبوع وأصروا أن يؤخروا غداءهم لحين يأتى أبوهم ..نعم الولد.. فكر أبو الفضل فى نفسه ..لو أن الأمر يتعدى الانتظار على طعام، "وكيف حال البنتين؟" سأل زوجته، فأجابته مبتسمة أن ليس هناك ما يدعو للقلق، فتمنى من أعماقه أن يصدق ما تقول، ثم خص الصغرى كعادته بمزيد من العطف فأكدت له الأم أنها ما أن تشعر بحركته فى الدار حتى تأتيه من فورها ساعية.

ولاحظت الزوجة سحابات الهم تثقل جبين زوجها وودت لو تعرف ما خلقها. ولكن طول عشرتها له علمتها أن من الأفضل أن تدعه ينفض ما بنفسه بإرادته، أما هو فخيل إليه أنها تحجب عنه ما تود أن تفصح به، ودعا ربه أن تظل أعماقها محتجبة فكفاه ما يدور وينفعل

فى أعماقه هو ..فقط يريد أن يطعم ويصلى العشاء ثم ينام، لكنه كان يدرك أن نومه لن يريحه والعيون كلها تراقبه والأفواه تحتجز ما يجيش فى الصدور من تساؤلات. وكانوا قد التفوا حوله بعد أن فرغوا من طعامهم يدور حديثهم حول عوالمهم وما ينشأ ويتجدد فيها والأم تنظر فى وجوههم مشفقة من حماسهم وكأنهم لا يزالون أطفالاً يصخبون فى حياتها بمبالغاتهم فى المغامرة ثم يستقر بصرها فى وجه أبى الفضل ليصيبه نصيباً من الشفقة وهى تشهد آثار العمر وما يلحق من بقاياه، ويتحدث قلبها بخوف وهى تترقب ما سوف يدور من حديث بين ما أحرزه الماضى من قدم وما يلوح به المستقبل من ادعاء ولا تجد لنفسها جانبا تميل إليه هذه اللحظة لو خيرت بين تلك النظرة للصفحات المفردة والنظرة لصفحة تقترب من الانطواء، فقد توزع عمرها ومآلها بينهم ويستحيل عليها أن تنتزع من ناحية، وكان الحديث قد اتخذ وجهته المرتقبة بكل الخوف والقلق فى نفسها وكمال يسأل والده فى هدوء

-التقيت عم مدين مصادفة فى طريق العودة ودار بيننا حديث بخصوص الأرض قال أنه يسعى لنقله إليك ..هل قابلك؟

نظر الأب إلى ابنه محاولا استقراء ما تخفيه ملامحه، تلك الملامح التى ورثها عن أمه والتى تخفى كثيراً مما لا يتشابه معها، وفهم الأب

أن ابنه فى عجلة من أمره، فالتردد والترقب يقاومان السكون المصطنع ..قال دون أن يظهر إنفعالاً

-نعم كان معى قبل صلاة المغرب، كان هو سبب تأخرى عليكم.

تساءل مختار والإهتمام الشديد واضحا فى وجهه

-أحقاً يا أبانا ما سمعناه من أن عبد الصمد صاحب قمائن الطوب عرض شراء أرضنا بعشرين ألف جنيه للفدان ..هذا مارده الأستاذ عطية.

ثم أضاف وهو ينظر فى وجوه إخوته

-إن هذا ضعف سعرها فى السوق تلك فرصة العمر لتحقيق أحلامنا.

وابتسم حسين لتطلع أخيه فى وجهه وأضاف

-هذا معناه أن نبدأ كبارا ..المهم أن يدفع عبد الصمد الثمن نقداً فقيمة المال فى كماله.

أما جميلة فانبسط جبينها وأشع الاطمئنان من عينيها وهى تتابع حماس اخوتها، إلا أصيلة، صغراهم، فقد التصقت بجوار أبيها لا يبدو عليها الإهتمام بما يتداولونه بينهم وان شعرت بحاجة أبيها لمن يبثه عطفه فآوت إليه ..وتدخلت الأم قائلة

-أبوكم لم يؤكد الحديث ولم يطلعكم على رأيه ان كان صحيحاً فمهلاً لأحلامكم.

قالت أصيلة وهى أحبهم إلى قلبه

-أبى تعبان، طول النهار يعمل وغداً سيلقى خطبة الجمعة ..أولى بنا أن ندعه يستريح.

وكأنما كانت تلك لمسة العطف التى تمناها أبو الفضل لتشد أزره على الحديث، وتداعى لذهنه انشغال أولاده وقلقهم فقال مختصراً ذلك القلق وهو ينظر فى وجه زوجته كأنما يسألها المساندة

-الأرض أصبحت اليوم حديث الجميع، عبد الصمد عرض عشرين ألفا فى الفدان لكى يمحو تربتها ويحولها إلى حجر، ومدين عرض ثلاثين ألفا ليقيم فوقها أبنية من الأسمنت وأردية من الحديد ويهدر منها الحياة، نعم حدث هذا، ليت الأجداد يشهدون ما يطمح إليه الأحفاد ليعرفوا كم ساءت الأحوال.

وانعقدت الدهشة فى وجهى حسين ومختار وصرخا فى صوت واحد

-ثلاثون ألف جنيه للفدان ..إنها ليلة القدر.

أما كمال فكان أقل حماساً لعلمه المسبق بالخبر ولأن المعنى فى كلمات والده لا يخفى نيته، لكنه أضاف متحسسا طريقه للمناقشة

-لا يمكننا بالطبع أن نتعاون مع أمثال عبد الصمد فالبلد فى حاجة لكل شبر مزروع، لن نقترف إثما كهذا، ولكن مسألة مدين تختلف.

أضاف مختار مؤكدا ما يعنيه أخوه الأكبر

-بالتأكيد تختلف من كل الوجوه.

ونبهه حسين الأخ الأصغر ساخراً

-نحن لم نعرف بعد تفاصيل ما عرضه مدين ..لم كتمت عنا الخبر يا كمال؟

تدخلت الأم قائلة

-أنا الذى طلبت منه كتمانه حتى يعلنه أبوكم إن شاء.

وقالت جميلة لأمها غير مصدقة

-ولكن هذا خبر سار يا أمى لا يجب كتمانه

قال الأب وهو ينتقل ببصره فى الوجوه المتطلعة للغيب

-فيم يختلف "مدين" عن "عبد الصمد" يا دكتور كمال؟ دعك من فارق الثمن، أليس ملء الأرض فى الحالين إلى بوار؟ أليست النهاية واحدة وهى الحرمان من خيراتها وافتقاد صحبتها وانقطاع صلة الأحفاد بأسلافهم العظام؟

ووضح لكمال واخوته أن أباهم قد استقر قراره من قبل أن يستطلعوه الأمر وبدأ كل واحد فيهم يتحفز للمقاومة ..إن أمامهم فرصة العمر

لتحقيق أحلامهم والاستسلام لمنطق أبيهم يبدد تلك الآمال، هكذا تآلفت عقولهم ونفوسهم وكأن بينهم ميثاق مكتوب.

وكانت تلك أتعس لحظات أبى الفضل فقد اجتمعت العزائم تناهضه وتبارزه من خارج بيته ومن داخله، من ظاهر حياته ومن باطنه، وكلما ظن العاصفة قد حولت وجهتها وأخفقت طريقها إليه، فجأة يلمحها إعصارا مندفعا نحوه بكل قسوة وظلت عيناه تتابعان النظرات المتربصة به فى وجوه أبنائه حتى استقر بصره فى وجه زوجته منشداً الطمأنينة والسند ..وأنصت لابنه البكر وهو يقول

-كما فهمت من عم مدين الأرض سيقام عليها مشروع عظيم سيعود على القرية وأهلها وما جاورها بخير وفير لا يقصد منه دمار للأرض أو تخريب لها ولأن أرضنا تشرف على الطريق الرئيسى بعد توسعته ومساحتها مناسبة فالعرض كان سخياً.

وأمّن أخواه على حديثه فى حماس وشعروا أن والدهم ربما يعيد التفكير فى منطقه.

قال أبو الفضل وهو يتحسس إلى جواره فتاته الصغيرة وقد داعب النوم جفنيها

-إنى أعرف قيمة الأرض أكثر من أى واحد فيكم وأدرك جيداً أشكال الخير الذى تحمله، وما تصفونه بخير يأتى ببيعها ما هو إلا وساوس

من الشيطان، تلك الأرض صنعتنى وأمثالى ممن هيـأوا للحيـاة مثـلا ومبادىء عالية نشأتم بوعى منها ولولاها ما أصبتم ما أصبتم من علـم ولأصبحتم أضعف من أن تناهضوا والدكـم أمـره ..إنـى أحذركـم إن سلمتم ببيعها فأنتم تهلكون أنفسكم سواء حدث ذلك فـى حيـاتى أو بعد مماتى.

قال حسين مستعطفا

-أطال الله عمرك يا أبى ..ولكن العبء يتزايد عليك ونرنو لراحتك.

ثم أضاف مختار

-وأنت تعلم يا والدى أننا لا نفهم فى فلاحة الأرض مثلك.

وقال كمال فى صراحة قاسية

-أننى لن أنشئ عيادة حديثة كما كنت دائما تتمنى من أجر الحكومة هذا مستحيل ومختار بشهادته من التجـارة أو حسـين كمحـامى ..لـن يتحقق طموح أيهما بوظيفته ..وأختانا ألا يستحقا زواجـاً يليـق بإسـم "أبو الفضل"؟

قال أبوهم مستنفرا نخوتهم وكبريائهم

-ولكن على كل فرد منكم أن يشق طريقه فى الحياة ويجتهد ليحقق ذاته ..أما بناتى فأنا كفيل بهن.

وكان كمال الذى قال

-فى هذه الحالة فلنا الحق أن نشق طريقنا كما يتيسر لنا ..فمثلاً كندا تطلب أطباء.

وبدأ الحزن يعتصر قلب الأب خاصة حين نظر فى وجه زوجته فخيل إليه قولها هم أولادى مهما تكن الأحوال، وتمتم أبو الفضل بعد صمت عميق

-كل واحد منكم مصرّ أن يبيع زوجته!

وتبادل الجميع نظرات الحيرة والاستغراب وعدم الفهم لكنه لم يأبه لهم واستمر يقول

-لن أسمح لأحدكم أن يتسول من بعدى أو تشرده بقاع الأرض، حبى وواجبى نحوكم يفرضان علىّ ما قد يتعارض مع رغبتكم، الأرض لن تمسها نار عبد الصمد ولن يلوثها أسمنت مدين، ستظل بسوادها أو خضرتها رحماً للحياة ما حييت وما بعد مماتى كما هى مشيئة الأجداد..

وبدأت عاصفة الغضب والتمرد تجتاحهم وتثير منهم ردود فعل متشابهة قل كمل ساخطا

-أننى لا أفهم يا أبى أن ترضى لنا الفقر والغربة وبين أيدينا ثروة طائلة، لكننى لا يمكننى الاستسلام لهذا المصير وسوف أتخذ إجراءات سفرى إلى كندا كما كنت أخطط من قبل.

وتلاه مختار قائلاً

-أما أنا فسأقبل ما عرضه عليّ حملى من عمل فى بنك بالسعودية ولا لوم عليّ.

ثم تبعهما حسين

-وأنا سأتدبر حالى فى القاهرة حتى يتبين الأمر ..ربما أسافر إلى أمريكا.

وشعرت جميلة بالغربة وأحاديث الشتات تطن من أفواه اخوتها ونظرت إلى أمها تستجديها العون، وكانت الأم فعلا مشغولة بحديث صامت مع زوجها تنطق به كل خلجة فى جسدها وتجسده نظرات عينيها المتوسلة أن احفظ عليّ أولادى.

وانتقلت رسالتها إلى أبى الفضل كاملة مؤثرة تضغط على مراكز الشعور فيه بكل قوة فهم أولاده أيضاً، واهتزت صفحات التاريخ المحفوظ فى كيانه وبصره لا يزال متشبثاً بتلك الصفحة الحاضرة فى أعماقه ونزع الشك فى صدره إلى أين ينتهى ومن أين يصل ويتواصل، ولم يجد بدا من أن يقول محاولاً أن يتشبث بما تبقى من الزمام بين يديه

-دعونى أعيد التفكير فى المسألة من جديد حتى الغد ..دعونى لنفسى فقد كان يومى ثقيلاً فريداً فى ثقله تبتعد عنى نهايته بقدر ما أتمناها.

واكتفت الأم بهذا القدر من الأمل فى حديث زوجها فهى تعلم أنه كان من المستحيل لولا رهانها الذى راهنته بعمرها وعشرتها، وطلبت من أولادها أن يذهب كل منهم لشأنه وأن يتركوا أباهم لراحته، وانحنت على صغيرتها أصيلة توقظها وتمضى بها إلى مخدعها تاركين أبى الفضل لعالمه يناوشه ويساوقه.

ولم يشعر أبو الفضل بكم من الزمن مر عليه فى جلسته تلك حتى نهض إلى فراشه ينشد الراحة لجسده وإن أمكن لروحه المشتتة المعذبة فى ذلك العالم المفروض عليها والذى عز عليها فيه الأنيس. لم يكن أبو الفضل مشغولاً منذ تركه أولاده ثم زوجته بما دار بينهم من حوار بثته الألسن ونبضت بمعانيه العيون، ولم تكن نفسه تتهيأ للتشبث والمقاومة لما قد يطرأ من تحول يلوح به الزمن حين يخضع لضغوط العاصفة ومنطق الحال وتبهت فى ذاكرته وصية الأجداد التى استؤمن عليها بشرف العهد.

لم يكن مشغولاً بشىء من ذلك، وإنما كان يسبح فى حال هى خليط من الرثاء والسخرية والكبرياء والحيرة كل ذلك معاً ..وبدا له وهو

يتأمل ذاته أن القدر خصه بتلك اللحظة الفريدة دون أن يهديه إلى السبب أو يهيئه لها بسبب، أو هكذا ظن وصور الأجداد تتلاحق فى مخيلته تنتقل الوصية بينهم حتى تصله عبر السنين سليمة مؤكدة ..فهل هو نهاية القائمة وقد اختط الأبناء لأنفسهم خطا مختلفاً وتجرأوا على التاريخ؟ وهنا اهتزت أنفاسه حزنا وقد كانت توشك أن تتعاظم كبرياء أن يختص بأعقد اللحظات، ثم انبعثت الحيرة فى البحث عن الحكمة من كل ما حدث، لو كان يستطيع لطرق أبواب المقابر يستفسر أصحابها ويستنصحهم ويتدبر معهم أمره ربما يجد مكانه اللائق بينهم حين يقضى الأجل.

ولم تفلح محاولات الرقاد فى إراحة الجسد فأخذ يدور فى جنبات الدار كأنه يستنشق من غبارها أفكاراً ازدحمت بها ذراته يوماً، أو كأنه يستلطف منها أطيافا تناجيه ويبثها ما يشتكيه ..ثم عاد إلى مضجعه مرة أخرى واستلقى بكيان تضطرم أعماقه بقوة تتخطى حدود الزمن وتنفذ فى أستار المحال.

الفصل الثانى

كفاح الحرب

برز وجهه من بين اللفائف والأربطة التى أحاطت به كأنما صنعت من أكفان الخلود، لم تمسها أصابع الزمن وما تشيعه من تغيير، فلا زالت ملامحه موطنا لمعانى القوة والجسارة سواء بجبهته العالية أو عظام الوجنتين الناتئتين من خلال ما اكتسى الوجه من وشائج حياة فظلت تحتفظ لصاحبها بسطوته وإقدامه. وانبهر أبو الفضل وهو يتأمل ما ملأ نفسه رهبة وخشوعا وهو يتابع صاحب الوجه ينفض عن وجوده أبعاد مكانه وقد قهر بعد الزمان، وصدق أبو الفضل أن هناك من يحرك الأشياء بالفكر والنظر ..وإذا بصوت يصل أذنيه بالرغم من أن صاحبه لم يحرك فمه

-أنت "أبو الفضل" أعرفك من آلاف السنين، ما سبب تلك الجهامة التى تطل من وجهك هل مات أولادك؟

وشعر أبو الفضل بالحزن يعصر قلبه وهو يحاول بث خواطره

-فيك ملامح العائلة، أنت جدى الأول "أمين" على وجه اليقين، قلبى يحدثنى بذلك، لكن السبب ليس موت الأولاد يا جدى إنما هى وحدتى التى اعتصرت غصتها حلقى بالرغم من كثرة الولد وعمار البلد.

وظهرت علامات الدهشة فى الوجه القوى وهو يقول :

-الذى تقوله عجيب لم أسمع به من قبل ولست أفهمه ..المهم الأرض بسلام!

-إنها هى سبب همى.

تمتم أمين بتلقائية غريبة

-كانت كذلك على الدوام، لكنه قدرنا يا بنى أن نحمل تبعتها ونؤدى نحوها واجبنا ..ثم أضاف بعد قليل

-ألمح ما تفكر فيه وتنتظره منى، لكننى لا أملك أن أهبه لك أو أدلك عليه، كل منا واجه تلك اللحظة من عمره وكان القضاء دائما أن يواجهها وحده، ربما كانت تلك علة انفرادها عن الزمان. وشعر الجد بالأسى ينتشر فى أعضاء حفيده يوشك أن يأذن لليأس بالحلول، وأحس بقليل من عطف غريب عن عالمه، فأضاف بعد قليل وهو متحير

-كل ما يمكننى أن أقدمه لك هو تجربتى فى تلك اللحظة من عمرى وكيف واجهتها، ربما تأتنس وتعرف أن مما يخفف البلاء تكراره، واعلم أننى فى تلك اللحظة من عمرى لم أهتف لجد يظلنى بحكمته أو يؤنسنى بحكايته لأنه لم يكن هنالك جد لديه ما أنتظر.

ولما اطمأن أمين لإصغاء أبى الفضل واهتمامه المتزايد بحديثه بدأ يسرد عليه ما حدث ..قال:

كنت وقتئذ فتى يافعاً ألهو مع حفنة من فتيان القرية فى الطرف البعيد إلى جوار النهر، وكان من بين هؤلاء الفتية أخ لى غير شقيق اسمه كارم يماثلنى فى العمر، ولكن بالرغم من اختلاف الأم كنا أقرب ما نكون لتوأمين سواء فى مظهرنا الخارجى أو ارتباطنا الدائم واهتمامنا المشترك أقرأ الحيرة فى وجهك لأنكم لم تعرفوا لى أخاً بهذا الاسم، ولكن هذا منطق التاريخ يا بنى لا يتذكر سوى الذين ينصرونه على العدم ..ولم يعرف أحدنا -كارم أو أنا- من المقصود بنبوءة الشيخ عبد الجليل حتى حانت تلك اللحظة التى تماثل لحظتك وربما فاقتها انفرادا ووحشة، وقتها أدركت أنى أختلف عنه بالرغم من كل تماثل وكان قضاء التاريخ، ولسوف أدعك تنظر بنفسك لتلمح ما أعنيه وتشهد ما أقصه عليك.

وانطلق فى بصر أبى الفضل مشهدا لفتية يتصارع بعضهم بالأيدى، وبعضهم يتنافس فى حمل جزع شجرة ضخم وبعضهم يحتطب بعصى غليظة فى فتوة وحمية شباب. وتركز بصره على اثنين يحتطبان باقتدار وفن، كلاهما يدور حول منافسه بخفة الفراشة ومكر النمر يترصد للآخر موطن ضعف، وأذهل أبو الفضل التشابه

الصارخ فى ملامحهما ورسم جسديهما، ووصل سمعه صوت أحدهما يقول

-أنت اليوم فى أحسن حالاتك يا كارم.

ورد عليه الآخر وهو يتصبب عرقاً

-بالرغم من ذلك لم أتمكن منك بعد يا أمين.

-كان يمكنك أن تفعل لو لم تنشغل بالرد على حديثى ..

وقبل أن ينتبه كارم لمقصد محدثه عاجله الأخير وأجهز عليه فصاح به مغاضبا

-لقد خدعتنى.

فقال له أمين وهو يمد إليه يده لينهضه

-كان لا بد لأحدنا أن يضع نهاية للمبارزة فقد اقتربت الشمس من الزوال ولا يجب أن نغضب أهلينا، لا يزال فى أيام التحاريق مزيد للهو والرياضة فهيا بنا.

واتخذا طريق العودة إلى دارهما وبينما هما ينشطان فى سيرهما حتى لا تدهمهما الظلمة برز لهما فجأة شيخ طاعن فى السن ذو لحية بيضاء كبيرة ووجه يشع ضياء، قوامه فارع لم تؤثر فى استقامته السنون، وكان يرتدى ملابس بيضاء كأنما قدت من سحاب. واعترض الشيخ طريقهما قائلاً

-أنتما أمين وكارم! أنتظركما منذ زمن ولكن لكل شيء موعده واليوم موعدكما معي.

وجفل الفتيان من المفاجأة ولكن ابتسامة الشيخ المشرقة هدأت قليلاً من روعهما ولطفت من تأثير مهابته عليهما، وتجرأ "أمين" فقال

-لكننا لا نعرفك يا عمنا، أنت لست من أهل قريتنا.

فرد الشيخ وهو يراقبهما بحدب

-أنا الشيخ عبد الجليل أتيت إلى هنا من بعيد في أمر يخصكما، أرجو أن تقصرا من مساءلتي فوقتي معكما محدود.

وسأله كارم بكبرياء الشباب

-وماذا تريد منا؟

فأجاب عبد الجليل

-إنصتا إليّ جيداً! مقدر لأحدكما أن يجمع شتات هذه الأرض ويوحد أهلها ويصون للنهر العظيم حرمته، لا تتقاتلا فالقوة وسيلة وليست غاية، لكن الغاية يجب أن تنال فليس هناك ما هو أغلى منها وأعظم، لا أحد يعلم من منكما ستتحقق به المقادير فأنا ملزم أن ألقنكما معا فنون القوة وأساليب القتال كما أمرت، موعدنا غداً مع طلوع الفجر في نفس هذا المكان، هذه دورة في الزمان.

واختفى الشيخ من مدى الرؤية فجأة كما اقتحمها من قبل مخالفا مبدأ الأشياء، ونظر كارم إلى أمين فى شك وعلامات الحيرة ترتسم فى وجهه وتنعكس على أخيه ثم قال

-هل فهمت شيئا من هذا الرجل؟ لو لم تكن معى ما صدقت نفسى، أيمكن أن تكون روح أحد الأجداد؟ مالك قد تسمرت فى مكانك، الليل يهبط علينا هيا بنا.

قال أمين وهو شارد الفكر يحملق فى الظلام كأنما هناك ما يراه غير سواده وكآبته

-لا سبيل للتأكد مما حدث غير أن نحضر فى الموعد الذى ذكر، ولكن لا تخبر أحدا حتى لا يظن بنا الجنون.

وبات كلاهما مشغولاً بما سمعه، أحقاً ستميز الأقدار أحدهما بذلك المجد العظيم الذى لم يطمح إليه أحد ليصبح البطل المنشود تتوحد الأرض بسلطانه وينتظم النهر لصولجانه، تلك الأرض التى تفتتت حدودها ومعالمها بين الضرورة والطمع والبديهة والجشع فانتشرت المعارك وأفسدت الحياة، وهذا النهر الذى أزعجته الفرقة والاختلاف فجفل عطاؤه أحياناً وأحياناً أخرى عظم سخاؤه عن الإحتمال. وأنى لفرد أن يقهر كل هؤلاء المختلفين إلى اتحاد وكل منهم يمتلك قوة قاهرة؟ أنى لأحدهما أن ينازل "أبو الخضر" أو

"الأعسر" أو "المندوه" فضلاً عن هزيمته؟ والشيخ يصور لهم ذلك كأنه حاصل يقين ..لابد أن جهد اللعب والمنازلة صور لهما الأحلام واقعا.

وظلت الخواطر جاثمة على مخيلة كل من الفتيين حتى استغرقهما النعاس وهما لا يدريان، ثم فزعا من نومهما قبل الفجر وكل منهما لا يدرك ما أفزعه، وكانت تلك إشارة أيقظت ضميرهما لوجوب تلبية النداء فانطلقا إلى المكان والزمان الذى حدده لهما الشيخ عبد الجليل.

ووجداه فى انتظارهما بقامته المديدة ووجهه الوضاح كأنما الزمان والمكان ليسا من أبعاد تواجده وابتدرهما بقوله

-أعرف أن رأسيكما تلك اللحظة لا تحتويان سوى أسئلة واستفسارات ..لكن ذلك لا يفيد ما سوف تتعلمانه يضمن لكما الإجابة فى الوقت المناسب، واحفظا عنى اليوم ما سوف يفيدكما الغد الإجابة لا تصح قبل أن يصح السؤال.

ولم يمهلهما وقتا للرد عليه بل اصطحبهما إلى ساحة واسعة تخفيها الأشجار عن الأنظار ثم استأنف يقول وزقزقة العصافير تحيط صوته بغلالة من واقع الصباح الذى طرقت اشراقته الوجود

-الدرس الأول فى فن القتال عن الإعداد البدنى، كلاكما كما هو ظاهر قوى البنية متين الأركان حرصتما على التمرين المستمر ورياضة القوة، لكن تلك قوة رصيدها الشباب فإذا أفل زمنه أفلت معه، أما القوة التى تعنينا فهى قوة لا يهزمها الزمن لأنها ترتبط بقوة الحياة ذاتها فى كيان المخلوق، فحمل الأثقال مثلا يفيد الأعضاء ويقوى البدن لكنه حينئذ لابد أن يرتبط بطريقة الأداء من ناحية الحركة الخارجية وأيضاً الحركة الداخلية بنفس القدر من الأهمية، وأقصد بالحركة الخارجية سرعة الأداء المناسبة وبالحركة الداخلية ضبط النفس مع التركيز فى الفعل.

ولاحظ الشيخ أنهما لم يفهما فأشار إلى جذع شجرة ضخم وسألهما

-هل يمكن لأحدكما رفع هذا الثقل؟

فنظرا إليه باستغراب ودهشة وأجاباه معا

-إنه أضخم من أن يحركه أعتى الفتيان.

وابتسم الشيخ وقال

-أنتما أقوى الفتيان، ولكن لكل شيء مفاتيحه وأسراره، سوف تريان كيف يمكن رفعه فتفهمان حينئذ ما كنت أقول.

وضحكا معا ساخرين وهما يشهدان فى وجهه إختلاف الزمن، لكنهما سكتا فجأة وانتبها لما يفعله الرجل، إذ التفت نحو جذع الشجرة

الضخم ثم اقترب منه حتى وقف أمامه واخذ يرنو إليه ببصر قوى نافذ كأنه يحدثه بلغته وبدأ يتنفس بنظام مدهش عجيب لم يشهدا مثله من قبل، وبعد لحظات وضع يديه تحت الثقل فى موضعين اختارهما بعناية فائقة، وفى لحظة مفاجئة شهقا دهشة منبهرين بالشيخ وهو يرفع فوق رأسه جذع الشجرة ثم يعود به مرة أخرى إلى موضعه ثم يقبل عليهما فى هدوء وهو يقول

-أى منكما يمكنه ذلك بالتمرين المقصود وهو ممكن وان كان غير ميسور إلا لمن اتصف بالمثابرة والقوة الذاتية وكلا كما يتميز بها.

واستمر الشيخ عبد الجليل فى حديثه وهما يصغيان إليه باهتمام بالغ ومهابة ملأت قلبيهما

-بهذا يقاس كل أنماط التدريب والرياضة الحقة ..الغلبة لمن يضبط الحركة داخله بخارجه طوال فترة النزال ..لهذا هزمك أمين يا كارم بالأمس دون أن يدرى أحدكما السبب ..فلقد ألهى تفكيرك عن الصراع بحديثه فاختل توازنك وانتهز هو تلك اللحظة النادرة.

وبهت كلاهما وهما يسمعان حديث الشيخ عن الأمس وسأله كارم بجرأة

-وكيف علمت بما حدث؟ من أنت على أى حال؟

وأجابه الشيخ

-المعرفة هنا ليست بالسؤال، وجرأتك فى السؤال تعنى البطء فى الفهم، ألم أخبرك من قبل أن الإجابة تصح بعد سؤال صحيح؟ الأن هيا إلى المران فلا وقت لتكرار الدرس يا أخوى الصغيرين.

وانطلق بهما فى عالم غريب عنهما وهما يلهثان من عظيم الأنفعال، ثم بدأت الآثار الأولى تزول والأنفاس تسكن وتنتظم ويزداد تهيؤها واستعدادها للمزيد وللأكثر صعوبة فى عالم كان.

وكان قد مضى شهر قبل أن يتقدم إليهما بدرس جديد مما أكد لهما أنهما يمضيان معه على طريق مرسوم، فازداد حماسهما وعلت فى نفسيهما الهمة واشتعلت الحمية. قال وهو يستخدم أصابعه فى الإشارة والتمثيل.

-اليوم تعرفان أى أجزاء الإنسان أقواها وأيها أكثرها ضعفا وحساسية، من المهم فى القتل أن تعرف أين توجه ضربتك لخصمك وكيف تؤديها لتسبب له أعظم الضرر بأقل قوة ممكنة ..إنك إن وجهت ضربتك بطريقة غير دقيقة إلى هدف عشوائى أدى إلى هزيمتك لا محالة، لذا لابد أن تفكر بأى قدر من القوة توجه ضربتك وأيضا بأية سرعة؟ وكل نقطة فى جسم الإنسان تختلف حساسيتها عن الأخرى..

وانهمك عبد الجليل فى الشرح والتمثيل حتى تحول الجسم البشرى فى وعى الفتيين إلى مجموعة من المراكز والمناطق لكل

منها مستوى حساسيته ولابد أن يعى المقاتل كل ذلك ويحفظه عن ظهر قلب.

وانتقل الرجل بهما بعد ذلك إلى أشكال قبضة اليد والقدم والقوة التى يمثلها كل شكل ثم بعد ذلك إلى كيفية استخدام المتاح من السلاح ..وهكذا لم يترك شيئا يجعل منهما أعظم المصارعين إلا وبينه لهما واطمأن أنهما قد استوعباه كأفضل ما يكون.

وفى نهاية أحد هذه اللقاءات سأله كارم بزهو ظاهر يخالجه بعض التردد

-أيعنى ذلك أننى قادر على هزيمة اعتى المصارعين حتى هنداوى وبريقع؟ وسكت الشيخ طويلا قبل أن يجيبه قائلا

-سيظل هناك دائما من هو أقوى منك، لكننى سأطلعك على سر، ليس هناك شيء مهما ضؤل بلا قيمة أو إنسان مهما ضعف بلا قوة ما، والكمال مهما تراءى لخيال البشر غير مقدر فى حياتهم..

وقاطعه كارم بالرغم من نفسه

-ولكن هذا لا يجيب..

ثم خجل وارتعب من نظرة الرجل إليه ثم علاه صمت الاعتذار، ووجه الشيخ بصره إلى أمين واستأنف حديثه

-إذا لم تكن قوتك كافية لقهر خصمك استخدم قوته هو فى قهره ..أنت تستوعب ما أقوله قبل أن تفهمه ..هذا خير وأصلح.

وسأله أمين

-ليتنى أعرف من تكون؟

وابتسم الرجل أجمل ابتسامة شاهدها أمين وقال وهو ينظر إليهما فى عطف

-أنتما لم تعرفانى حتى هذه اللحظة؟

ثم أضاف بعد قليل ونظره ذاهل فى غيب خفى

-إننى كأحدكما فى حين من الزمان ..واهب الحياة حارس أرض الإله، حامى حماه، ملبى نداه تعرفنى من أكون إذا بحثت فى نفسك!

ولم يفهم أحدهما شيئا من كلمات الشيخ، فصمت أمين عن كبرياء وإن مسه بعض حزن، وشعر كارم بالرضى أنه لم يفز منه بأكثر مما فاز ..يبدو أن الغموض من معالمه.

وفى اليوم التالى حضرا فى موعدهما وهما متشوقان لما سيفضى به شيخهما من أسرار الحرب والقتال وقد شعر كل منهما فى نفسه بقوة نادرة تقهر من يعترض طريقه نحو غايته التى رسخت فى قلبه رسوخ الإيمان ..أن ينهى زمن التنازع ويمحو الظلم ويحقق الرخاء الذى لم تعرفه بلده بعد ويصبح فى أهله بطلا من الأبطال ..ولم

يجدا الشيخ فى انتظارهما كما هى عادته منذ لقائه الأول بهما والذى تكرر من ثم أياما وشهوراً.

وفى البداية لاحظا خلو المكان منه دون عظيم قلق، ثم بدأ الزمن أيضا يخلو من أثره مع طلوع النهار، فأدرك الشابان أن أمرا هائلا لا بد قد أعاقه لأن رسالته لهما واجبة التمام، لكنه لم يحضر أيضا فى غده مع أن شوقهما إليه يزداد ولهفتهما تتضاعف ..وقال أمين لأخيه وقد خبا الأمل فى حضوره لليوم الخامس لمغيبه

-أظنه لن يحضر أبدا يا كارم.

ورد كارم محاولاً اللحاق بالمستحيل

-لكنه لم يتمم ما بدأ ولابد أن يعود.

قال أمين مذكرا أخاه

-لقد أخبرنا أن الكمال غير متاح ..الشيخ امتنع عنا بإرادته ..لأصحاب الرسالات إرادة الحركة كما قال واحتجابه عنا يعنى أنه يسلمنا لأنفسنا!

تساءل كارم فى قلق

-هذا يعنى أن افتراقنا أيضا قد آن؟

أجابه أمين مؤكدا

-طريقك من شمال النهر وطريقى من جنوبه فإذا التقينا توحد مسراه وتطامنت أرجاؤه.

وعاد كارم يلحّ

-لكن الشيخ قال أحدنا فقط منوط به القدر.

فرد عليه أمين محاورا

-وقال أيضا أن القوة ليست الغاية.

-نعم. لكنه أكد أن الغاية لا بد أن تنال.

ثم ساد الصمت بينهما فترة طويلة لا يدرى أحدهما كيف يقطعه، ثم توقف كارم عن السير وقد انتبه لتوقف أخيه وقال فى تأثر

-إنى أكره أن أفارقك يا أخى، فما نحمله من أسرار ينوء بكاهل أحدنا وكيف تكون الحياة بغير صحبتك.

ورد عليه أمين

-لست بأقل منك حزنا لكننى على يقين من تساوى القوة مع الحمل المرتقب ..دعنا نرتقب أنواء المستقبل ونحقق رسالتنا السامية

-أنا فخور بك.

-أنا أيضا فخور بك يا كارم.

-فسوف نلتقى إذن بعد حين لتتوحد بنا الخطى.

- نعم يا أخى ..لقاء الغاية وحق القضاء.

وافترق الأخوان وكل منهما يتطلع إلى مستقبل لا يدرى كيف سيكون، وأخذت تشيع فى القرية مآثر القوة والإقدام وتتلاحق مع مرور الزمن أساطير الفخار وترتسم على الوجوه من بعد علائم الإكبار كلما ذكر اسم أمين أو كارم.

كانت بداية كارم مع أهل الشمل بعد أن افترق عن أخيه ببضعة أيام إذ ترامى إلى سمعه صراخ وصياح ولما اقترب من مصدر الضوضاء بدأ يلمح ألسنة من اللهب تتلوى وكتلا من الدخان الأسود الكثيف تتصاعد ويحملها الريح فى اتجاهه وازداد اقترابا من بؤرة الهياج وأذهله ما شهد واندفعت فى رأسه دماء الغضب وأوشك بحكم طبيعته أن يندفع من وراءها لولا أن تذكر حديث الشيخ بأن ضبط الحركة الداخلية أهم عناصر الفعل، وأن استيعاب الظاهر يسبق المواجهة، وأفاده استذكار نصائحه فتحولت دماء الغضب من رأسه إلى دوافع للرؤية واستيضاح ما يرى مهما تكن بشاعته. كانت النار تلتهم جرنا مجاورا تتساقط منه أجوال من الدقيق وتتحول إلى رماد وإلى ظهر الجرن يلتصق بيت صغير تتهالك عليه النيران بمعاول الإبادة والإفناء وقد تحلق حولهما جمع من الناس اختلط فيهم الرجال بالنساء والشيوخ بالأطفال، ولاحظ كارم أنه قد أقيم فاصل بين

تلك الناحية التى تتهافت فيها النيران وبقية البيوت فظن أن الحريق قد قصد ودبر لذلك المكان ثم تأكد ظنه حين طالع فى وجوه الناس الوجوم والإحباط وقد خفت صياحهم.فى استسلام وتسليم للأقدار ..لم يتحرك أحدهم ليقاوم ويستأثر بالمبادئة وكأنهم يشهدون مشهداً تمثيليا ينتظر له الإنتهاء فى موعده، ولما اخترق الصفوف محاولا الاستفسار واستدراك ما يجرى أوشك أن يصيبه ما أصابهم من تصديق الوهم بأن ما يحدث أمام عينيه مجرد حلم يستيقظ منه بعد حين ..كان ملقى على ظهره فى داخل الحلقة رجل اختلطت ملامحه وتشوهت من فرط ما امتصت جروحه من تراب ورماد وكثرة ما تصادمت أعضاؤه بالأرجل والأيدى وغيرهما من آلات، وكان يحتضن رغم إرادته حجرا ثقيلاً جثم فوق صدره كما تجثم الشواهد فوق قبور أصحابها لا أمل لهم فى رفعها والتبرؤ منها بأى حال، ولم يكن هناك فرصة لقدر من هواء يزفر به الرجل متأوها فاكتفى بالآهات تصدر من عينيه صامتة حارقة كأنما تنعكس على بؤرة الرؤية فيهما مشاهد من جهنم.

وتحركت عينا كارم وهو يكظم انفعاله تبحثان عن عناصر أخرى فى الصورة يفتقدها عقله ومنطقه فرأى قريبا من الرجل الممدد على الأرض رجلا آخر يفوق الوصف فى قوته وضخامته تنطق كل لمحة

من لمحاته بالقسوة والشراسة وغباء القلب، وعن يمينه ويساره مجموعة من الرجال الأشداء من فرط تعلقهم بشخصه ظن أن خيوطا حسية تربط حركتهم بحركته أنى تكون، وكان لديه كل المقدرة ليصيح فى الروح الممدة لدى قدميه ليصل قبح صوته كل الآذان التى أمنت واستقرت فيها الصرخات والآهات مهما تعالت واخترقت المشاعر والقلوب ..قال الرجل الفذ بسطوته المميزة

-هذا جزاء من يخالف أمر هنداوى ..أما أرضك فسأهبها لأول من يبول فوق جثتك.

وضحك الزبانية من حوله فى بلاهة أما الجمع الغفير من الناس فتحسس كل منهم فى نفسه المقدرة على الوفاء بشرط هنداوى كى يهبه الأرض ..واقترب كارم فى حذر من أحد الواقفين وسأله هامسا

-لا بد أن المتحدث هنداوى فهو يتفق ووصفه.

ولما زاد تفرس الرجل فى وجهه متعجبا أضاف كارم موضحا

-إننى غريب عن هذه الناحية ولم أره أو أصادفه من قبل

ويبدو أن الرجل اقتنع بتفسير كارم فهو لا يجد مبرراً لجهله غير ذلك.. فأجابه بإشفاق

-نعم هو بعينه ولكن اخفض صوتك فهو يمقت المتحدثين فى وجوده

وكان اهتمام كارم أقوى من تحذير الرجل فعاد يسأله قائلاً وفمه يقترب من أذن الرجل

-أى جرم اقترفه هذا المسكين لينكل به هذا التنكيل؟

وأجابه الرجل مستنكراً

-ألم تسمعه؟ لقد خالف أمره

وعاد كارم ملحا بالسؤال

-أى أمر هذا تكلف مخالفته إذلال النفس ومهانة الكرامة وفقدان الحياة؟

وأكمل الرجل

-وحريق البيت والجرن وتشريد الولد واستحياء النساء..

ثم أضاف وقد آنس من كارم اهتماما بما يدور بالرغم من غربته عنه

-لقد أمر هنداوى فلاحيه ألا يقايضوا محاصيل أراضيهم فيما بينهم وأن يتم كل شيء من خلاله وبإرادته، وقد ضبطوا عباس المسكين وهو يقايض جوالا من الدقيق مع أحد جيرانه، فأمسك به رجل هنداوى ولم يفلتوه.

ونطق وجه كارم بعدم التصديق فنبهه الرجل

-ليس المهم مخالفة الأمر بقدر ما تكون مخالفة الآمر ..هذا شيء واضح، مخالفة الآمر جرم فادح لأنه استخفاف بقدره وقوته ..لذا كان العقاب صارما ليكون رادعا.

قال كارم وقد اطمأن لصراحة الرجل وحكم منطقه

-ولكن لابد للمسألة من معنى ..ليس الأمر مجرد تعسف ..اعذرني يا أخي.

وطال الصمت بالرجل قبل أن يقول

-لا ضمان لنفوذ هنداوى وسطوته إلا إذا ظلت الأرض مفتتة بين القوم، ولو سمح لهم بتبادل المصالح فيما بينهم دون وساطته لأدركوا قيمة التوحد والاكتمال وتمكنوا من إضعافه والقضاء عليه. إذا لم تكن قد فهمت فليس لدى المزيد تستوضحه منى، ولولا أنك غريب وشعور بالثقة إلى جانبك حملنى للحديث معك من أول وهلة..

وسكت كارم فظن الرجل أنه قد فهم أو ربما زهد فى الفهم والسؤال، ثم رآه يتحرك صوب مركز الدائرة وفى عينيه تصميم وإصرار كأنما قرر أن يتحقق بنفسه من كل ما يختلف فى عينيه من مشاهد ويتردد فى سمعه من أقوال ..وقال الرجل فى نفسه وقد بدأت

خطوات كارم الواثقة تقربه من حيث يقف هنـداوى وصحبـه .."هـذا الغريب إما أنه بطل أو أنه مأفون".

وكان هنداوى ينظر إلى عباس فـى انتظـار حشـرجة المـوت لتطمئـن نفسه وتقنع بمقدرتها على البطش والإذلال مهما طال الزمان، وكانت الغطرسة التى لا حد لها والغرور والصلف وكل ما يملى بـه طغيـان القوة يعربد فى جسده وعقله فيظهره بمظهر المارد الجبار ..ثـم أفـاق فجأة على كارم وقد وقف يواجهه وينظر فى عينيه نظرات متحدية ظن هنداوى من جرأتها أنها مجرد أوهام تعبث فى مخيلته من حيـن إلـى حين، لكنها هذه المرة لم تكن وهما أو خيـالا وإنمـا واقعـا عليـه أن يواجهه بأكثر من مجرد صرف الخيال.

وأفاقت الروؤس المتراصة للمشهد الجديد الأكثر غرابة وزادت حدة الأبصار والبصائر لتتابع ما يجرى وتتعمق من ثم فى نـذر اللحظـات التالية ..وجلجل صوت هنداوى بسخرية مخيفة

-من أنت يا شاطر وأى مصير تعس ينتظرك حيث انتهت بك قدماك؟

ورد عليه كارم فى هدوء ووعيه يترصد كل ما حفظه عن شيخه

اسمى كارم أبو الفضل ..وأنت هنداوى ..حقا؟!

وتجاهل هنداوى نصف الجواب كأن لم يسمعه واستمر يقول هازئاً

-لا أعرف أحدا فى ناحيتنا بهذا الاسم اللهم إلا أن تكون حشرة من نوع لم نصادفه ..هل تعرف مصير الحشرة الدخيلة يا ولد ..ما الذى أتى بك إلى هنا ماذا تريد لابد أنك أحد المتجسسين لأطراف القرية البعيدة، سوف نعرف كل شيء على مهل أو بسرعة كما تشاء.

وقبل أن يحيط به رجل هنداوى صرخ كارم فيه قائلاً وهو يشير إلى عباس

-الذى وضع هذا الحجر فوق الرجل المسكين عليه أن يرفعه فى الحال.

ولم ينفجر الجمع بضحكهم إلا حين سمعوا هنداوى يضحك متهكما ويقول وقد خطرت برأسه فكرة للتسلية.

-لماذا لا ترفعه أنت يا بطل وتشهدنا دلائل جرأتك ..ولكن حذارى فإذا فشلت فسوف ترقد لجانبه.. وذلك مصيرك على كل حال.

قال أحد رجل هنداوى لزميل يجاوره

-هنداوى سيتخذ من هذا الشاب تسلية ويدع ما هو أهم.

فرد عليه الآخر بوكزة موجعة فى صدره

-أنت غبى، أن كل فرصة تتاح لتأكيد جبروته لا يصح أن تهمل مهما كانت تافهة وإلا استفحلت، كما أن مزاجه المعتدل فى صالحنا بعد قليل.

ثم انتبها من حديثهما وتابعا مع الجمع مراقبة كارم وهو مقبل نحو عباس فى هدوء غريب بين ضحكات الهازئين ودعوات الخائفين فى همهمة لا يسمعها غير خالقهم.

ونسى كارم كل من حوله وما تعكسه صيحاتهم الهازئة من تهديد ووعيد أو صمتهم الواجم من خوف وذهول، وتذكر بكل وضوح الشيخ عبد الجليل وهو مقبل على جذع الشجرة الضخم يحمله إلى رأسه ويعود به إلى الأرض فى ثقة واطمئنان بينما ينظر إليه وأخوه بدهشة وعدم تصديق.. تذكر ضبط النفس الذى مارسه قبل أن يضع يديه على الثقل الهائل وتخيره الدقيق لموضع يديه من تحته وكيف تركزت فى ثانية قوة الوجود فى يديه.. ولم ينتبه كارم لصياح القوم وهتافهم إلا وهو يسند الحجر إلى الأرض بعيداً عن عباس وقد نزحه عن صدره بيسر وأمان، واتسع صدر عباس لمزيد من الهواء ومعه تضاعفت أنفاس الحياة وبدأ يسترد وعيه.. بينما هنداوى ورجاله واجمين وقد أخرستهم المفاجأة، ولما أفاقوا من ذهولهم حاول أحد الرجال الاقتراب من عباس ليطرحه من جديد قبل أن يستكمل نهوضه فاعترضه كارم ونظر إليه فى ثبات دون أن يفوه بكلمة فارتج على الرجل وحار ولم يعرف كيف يتصرف حتى استدعاه هنداوى

آمرا إياه بالانتظار،واقترب هنداوى من حيث يقف كارم وهو لا يزال فى حيرة من خطوته التالية.. ثم صاح فيه بعد قليل

-أنت تتحدانى يا ولد فتطلق صراح هذا الشقى أمام عينى؟

فأجابه كارم واثقا

-أى جرم ارتكبه يستحق عليه هذا الهوان؟

ثم تجاهله وصاح فى الناس

-هلموا معى نقاوم النيران ونستنقذ ما يمكننا إنقاذه، فلتكونوا يدا واحدة يا إخوانى.

وسرت بين جمهرة الناس حركة تدل على استعداد مكتوم تقاومه بقايا الخوف والرهبة فى النفوس وذلك الشيطان يتربص بخواطرهم، وشعر هنداوى أنه لو ترك الأمر يفلت من قبضته إلى هذا الحد فهو ضائع لا محالة فقرر أن يقضى على رأس الفتنة قضاء نافذا، ورفع يده وقد كورها كقبضة من حديد ثم اندفع بكل طاقته فى وجه كارم على حين غرة وهو يصرخ فيه

-أجئت إلى هنا لتفسد فى الأرض يا دسيسة يا ابن الكلب.. سوف تنال من هنداوى جزاء أمثالك من المغرورين.

ولم يكن كارم بالرغم من استنفاره الناس لمقاومة الحريق غافلا عن عدوه، وإنما كانت أحاسيسه قد توفزت واحتدت واتسع مجالها

فشمل كيان هذا الطاغية فما من حركة يأتيها إلا وتتردد بها مراكز الشعور فيه فيستعد لها بالقوة المناسبة، وما حسبه هنداوى قوة لا تقهر فى يده وذراعه سوف تهشم وجه كارم وتقضى عليه، إذا بهذه القوة تنقلب ضده فتختصر من وجوده وتزلزل أعضاءه، لقد تنحى كارم عن مستوى توجهها فاندفع جسد هنداوى كله وراءها فى الهواء، وأصبح كل عزم استخلصه من نفسه للقضاء على كارم قوة تدفعه إلى الأرض ليرتطم بها بعنف فتنكسر ذراعه ويشج رأسه وكان كل ما فعله كارم حينئذ أن دفع بقدمه معترضا طريقه فهوى إلى الأرض برأسه ونوافير الدماء قد انشقت بها. وبعد ثوانى انتبه لمصيره فحمله الغضب والثورة على قدميه مقاوما كل ألم صرخت به أعضاؤه واستخرج من ملابسه خنجرا حادا ووجهه صوب كارم قاذفا إياه بكل ما تبقى فيه من قوة وكانت كافية ليخترق الخنجر صدر كارم ويرديه صريعاً لولا أن تفاداه كارم بمهارة عجيبة فاستقر فى صدر أحد رجال هنداوى الذى كان متأهبا لعباس منذ قليل، لكن هنداوى لم يعبأ ولمح الحجر الذى كان فوق صدر ضحيته فتقدم نحوه وصورت له نفسه أن يحمله ويهاجم به غريمه، واندهش الناس وهم يشهدونه يرفع الحجر الضخم من فوق الأرض بالرغم من الدم المنزوف من جسده وتحطم ذراعه وانشجاج رأسه، وإذا بهم يشهقون من المفاجأة

التالية، فقد استنفد الحجر الثقيل فى رفعه كل قوة استنفرت من جسده فلم يقو أن يتقدم به خطوة واحدة وتهاوى به، وكلما اقترب من الأرض اندفع به الحجر أسفله حتى جثم فوق صدره كما كان جاثما فوق صدر عباس من قبل فى نفس المكان، وهلل الناس وتصايحوا وحشرجة الموت تتفتت على فمه مختلطة بدمه وظلمه وشقاه. وما أن اطمأن الناس لسكونه وقلة حيلته حتى اندفعوا بكل جرأة يذبحون رجاله ويقتفون أثر من هرب، أما كارم فصرخ فيهم أن الدمار سيحيق بهم جميعاً لو تركوا النار دون مقاومة فتكتلوا وتكاتفوا وعرفوا طريق الماء الذى يطفىء تلك النيران وينقذهم من دمار. لم يكن كارم قد تذكر وهو يصارع هنداوى درس الشيخ من أن قوة الخصم قد تكفى للقضاء عليه إن كانت أعظم من أن تقهرها قوته.. لكنه تذكر ذلك الآن والعجب يعقد لسانه فقد كان ذلك بالضبط ما حدث.. الآن تأكد له سر من أسرار القوة.

وما أن انخمدت النيران وانزوت حركتها ذليلة منكسرة بعد أن اندحر أنصارها من شياطين الإنس، حتى تهالك القوم من تعب وإجهاد وشعور بالتراخى تسرب فى أجسادهم وهم يظنون أن الشر قد قضى نحبه، وما أن لاحظ كارم تلك الحالة التى بدأت تنتشر وتذيع فيهم حتى انتفض وصاح فيهم

-لا راحة لنا وأخونا عباس لا مأوى لـه، سـوف نبـدأ بإعـادة بنـاء داره وليتكاتف الجميع معا.

ونظروا جميعاً إليه.. لقد اعتبر نفسه واحداً منـهم بـالرغم مـن أنـهم حتى هذه اللحظة لا يعرفـون غـير اسـمه وأنـه بقوتـه وإرادتـه حطـم هنداوى وعصابته، واقترب منـه الرجـل الـذى كـان يحدثـه مـن قبـل تحديه السافر لهندواى.. الذى ظنه بطلا أو مأفونا وقال مؤيدا

-نعـم يـا إخـوان لا راحـة لنـا وعبـاس بـلا مـأوى ولنقسـم أنفسـنا جماعات.. إحداها تنظف المكان من أثر النيران والمياه والأخرى تعد جواليص الطين لتبدأ الترميم والبناء جماعة ثالثة.

وصاح الجمع فى موافقة

-لقد هديت حقا يا عبد الهادى وسنفعل ما يأمرنا به كارم فهو أميرنـا منذ اليوم.

وجاشت مشاعر عبد الهادى بإعجاب وحب لهذا الشـاب الـذى بـرز لأهله فى تلك اللحظة من التاريخ فالتفوا حوله ملبيـن نـداءه، وأخـذه من يده وقد بدأ الناس يتحركون فى همة واجتراء محققين مـا وعـدوا به.. ثم قال عبد الهادى وهو يقتفى أثر خوف دفين فى نفسه

-ما حدث اليوم سينتشر فـى الإقليـم حتمـا وسـيعرف بـه "بريقـع" و"الجهم" ولن يسكتا عليه وهما أقـوى كثـيراً مـن هنـداوى وأكـثر

أعوانا وأشد غطرسة وفظاظة.. أشعر بالخوف عليك لما فعلته لأهلى من معروف ويعز علىّ أن أنصحك بالإختفاء والمضى لحال سبيلك.

وظل كارم مشغولا بما تشهده عينه من تكاتف الناس وتعاونهم وإصرارهم أن يفوا بما وعدوه به، ثم التفت إلى عبد الهادى وهو يسير لجواره وسأله

-ما هى صنعتك يا عبد الهادى؟ يبدو أنك تعرف أكثر من سواك.

ولم يعرف عبد الهادى الصلة بين ما حذره منه وصنعته فظن أنه لم يكن ينصت إليه، لكنه أجابه

-لست أعرف أكثر يا أخى وإنما استطعت أنا الكلام، كنت محظوظا إذ سألت فوجدتنى إلى جوارك. أما صنعتى فهى روؤس الحراب والأساور والخرز والخواتم من الذهب والنحاس.

فتمتم كارم بصوت لم يسمعه محدثه

-أنت إذن رجل هام.

وبعدَ أيام قليلة كان البناء قد اكتمل فجمعهم كارم من حوله وبدأ حديثه مغلفا نبرته بأقصى درجات الأهمية والخطورة

-كلكم يعلم مقدار الخطر الذى يتهددنا من ناحية الجهم والبلطجى الآخر بريقع، لكنكم لا تعلمون مقدار قوتنا لو تركزت وتوحدت أمام قوتهم لو اختلفت وتفرقت. كما عرفت منكم بريقع يفرض نفوذه

على ما يقرب من ثلث أرض الإقليم، والجهم ينشر سطوته على ما يقرب من النصف وما يقع تحت أيديكم لا يكاد يمثل الربع وقد أصبح خالصا لكم لا يقهركم عليه جبار.

فصاح أحد الملتفين حوله بحماس

-الفضل لك يا أميرنا وتاج رأسنا.

وصاح آخر فى حمية

-سنضحى بأنفسنا من أجلك مرنا بما تشاء.

وتدخل عبد الهادى وكان يقف إلى جواره

-أرجوكم أنصتوا إليه بوعى!

واستأنف كارم حديثه وهو يتطلع فى الوجوه المنتشرة فى بصره لا يصدق أنه يخاطب منها عقلاً يفهم أو قلبا يتلهف، لكنه حين انتقل ببصره إلى دار عباس التى شيدتها سواعدهم ونفوسهم اطمأن لفهم عقولهم ولهفة قلوبهم، وكان يقول

-لن يتحد الطرفان علينا لأن كليهما يطمع فى ضمنا لامتيازه، بريقع سيقاتل ليصبح مساويا للجهم أو يزيد بفرض سيطرته علينا، والجهم سيسعى لنفس الهدف ليصبح الطاغية الأول ثم يحطم من ثم صنوه بريقع ويصبح عمدة الإقليم.. فالخوف ليس من اتحادهما ولكن

الخوف أن يتصارعا من أجلنا فينتصر أحدهما ونصبح أمامه فريسة سهلة المنال.

وتدخل عبد الهادى وقد شعر أن بغية كارم لم تتضح بعد فقال

-اننا لن نقف بانتظار أحدهما أو كليهما علينا أن نتدبر خطتنا ونحدد مسارنا.

قال أحد الواقفين فى يأس ظاهر

-وماذا يمكننا أن نفعل ونحن أضعف الأطراف سلاحا وأقلهم غذاء؟

وفهم كارم مغزى تدخل عبد الهادى فى حديثه فاستأنف يقول بوضوح أكثر

-ذلك ضعف ظاهرى يا أخى.. بينما ينظر إليه عدونا فيشعر بالغرور والطمع ننظر نحن إليه لنحول خشيتنا منه إلى قوة واستعداد.

قال أحد الحاضرين

-لا زلنا لم نفهم أيها الأمير .. اعذرنا فقد تعطلت عقولنا زمنا.

أجابه كارم

-الذكاء كالذهب يا صاحبى .. أنت تفهم لكنك لا تعرف وسوف أشرح لكم..

قال عبد الهادى على ذكر الذهب

-مهما يطول الزمن يدوم بريقه وقيمته.. تلك ميزته. لقد وصفكم كارم بالذكاء وهو صادق فى كل ما يقول.

وهتف بعض المتحمسين

-إنه موفد من السماء .. إنه روح الأجداد.

واستمر كارم يقول

-أما السلاح فسيتكفل به عبد الهادى، سيبدأ من اليوم مهمته فى صنع الحراب التى تكفينا، وسيتخير منكم من يجده كفؤا لمساعدته فى صهر الدهنج وتنقيته وجلب ما يحتاج إليه من عجائن النطرون ومسحوق الكوارتزيت، وكل من لديه نحاسا فليحمله إليه.. كلما توفر لدينا السلاح قوى رصيدنا فى إفزاع عدونا ..

وهمس أحد الواقفين فى أذن جاره

-إنه يعرف كل شىء ويتحدث كبطل من الأبطال.

رد عليه جاره بحزم

-أنصت يا رجل لما يقول وافهم كما أمر.

وكان كارم يقول

-أما الرجال فسأتخير منهم الأقوى والأشجع وسأخضع الجميع لتدريب شاق لم يجربوه من قبل لأنه تدريب للنفس والبدن. لا بد أن نتميز عليهم بميزة لا يعرفونها فتكون هى مفتاح النصر.

ثم صمت كارم طويلا يفكر قبل أن يستأنف قائلا والجميع يصغون إليه فى ترقب وشغف

-أما الأرض فهى السبب والغاية، من أجلها خضنا وسنخوض الحروب وفنى وسيفنى الرجال فى كل أوان، وهى العرض نفديه بأرواحنا، الأرض ستصبح وحدة واحدة والأيدى العارقة يدا واحدة، ستزرع الأرض لحق الجميع وبما فيه صالحهم وعليها أن تطعمنا جميعاً بلا استثناء .. رغيف العيش أولا .. والمياه ستوزع بالعدل تطلبها الأرض لخيرها وليس الإنسان لطمعه وغروره.

وأخذ يفتش فى الحاضرين حتى وجد غايته فى رجل كان يحدثه منذ قليل وأشار إليه فتقدم وسأله

-ما أسمك

فأجابه الرجل بفخر

-مختار أيها البطل المغوار.

-أنت الذى سألت عما يمكننا فعله ونحن أقل سلاحا وغذاء؟

-نعم، لكنك أجبت وفصلت.

-لا يسأل رجل مثل هذا السؤال إلا أن يكون واعيا بدعائم أى صراع.. السؤال كان حكيماً كصاحبه وهو ما تحتاجه وحدة الأرض

وتنظيم حصتنا من النهر.. أنت مسؤول عن هذه المهمة العظيمة يا مختار، تنظم الزرع، وتوزع الماء توحد الجهد وتطعم الجميع.

قال مختار وعيناه تبثان حزنا دفينا

-هذه مهمة جسيمة أيها الأمير، ربما كان هناك من هو أفضل منى.

-لن يبخل عليك بنصائحه من هو أفضل وتتحمل أنت جهد العمل.

وأجاب مختار مطمئنا

-ما تأمر به واجب النفاذ

وأحاط كارم الجميع بنظره وظل يتأمل وجوههم وقد التصقت أبصارهم بمحياه تترقب أقل إشارة، ثم قال مختتما حديثه

-إنى أتلهف على لقاء لا يصح أن أهتدى إليه إلا وقد توحد إقليمكم فأصبحت أرضه بإمرة واحدة ينتظم بها العدل وينتشر الصلاح.. ووالله إنى لأراه ممكناً كما رأيتمونى أزيح الحجر عن صدر أخيكم عباس وكنت مثلكم أظنه مستحيلاً.. وإنما للقوة أسرارها.

وسرت فى الجميع روح غريبة تصدق ما يصل سمعها وإن لم يصل إلى عقلها لأن القلب أسلم من قبل لمحدثها الأمين. وتقدمت من كارم فتاة سمراء البشرة هيفاء القوام سوداء العينين والشعر رقيقة فى الخطو والملمس، كنسمة الربيع كأوراق الورد كوحى الشعر لجوهر

الجمل، وكانت تحمل فوق ذراعيها قميصا من الكتان المزين بزهرة اللوتس، ووقفت بمواجهته وهى ترنو فى وجهه وتقول والجمع مشدوه لحسنها وبهاء منظرها

-هذا القميص نسجته ورسمته بيدىّ ولم أعرف من سيكون صاحبه حتى نظرت فى وجهك فتأكدت من يكون، أقدمه لك وكلى رجاء أن تقبله.. لقد عادت للرجل فى وجودك بهجة الوجود.

وسألها كارم وقلبه يخفق لنعومة صوتها وروعة محياها

-ما أسمك أيتها الفتاة الفاضلة؟

فأجابته وهى تبتسم

-قيثارة أيها الأمير الشجاع

عاد كارم يقول وقلبه يصارع عقله الذى يمسك بزمام الأمور

-ما تقدمينه إلىّ أغلى من أن أقبله.. لازال أمامى الكثير لأنعم بملمسه على جسدى وقد اختلطت رقته برقتك وجماله بجمالك، فليكن ذلك جائزتى إن كتب لنا الله النصر وتوحدت بقوانا الأرض.

وظلت تنظر إليه وهو يتأمل بإعجاب القميص الذى بسطته أمامه، ثم قالت

-إن جائزتك حينئذ أعظم من كل ما تتأمله أو تفكر فيه.

فأجابها

-هذا ما قصدت إليه يا قيثارة وحتى ذلك الحين اصنعى له أكماما فهكذا أرتدى القمصان يوم العيد.

-هل تعدنى ألا ترتدى سواه يوم تتحقق الأمانى للجميع؟

-نعم وكلى شوق إليه.

وازداد القوم إيمانا بالرجل وهم يشهدون إخلاصه للقضية ووفاءه لها فتضاعف شعورهم بالمسؤولية معه وتحفزهم للنهوض بأعبائها، وانطلقوا يعدون ويستعدون طبقا لخطته. ومر الزمن وتوالت الشهور وفى أحد الأيام استدعى كارم عبد الهادى ومختار لمقابلته وسألهما

-كيف تسير الأمور؟

فأجاب عبد الهادى

-أوشكت كمية النحاس بين يدى أن تنفد لكننا صنعنا كمية لا بأس بها من السلاح.

قال كارم

-لا تجعل المادة تعوقك.. اصنع من الصوان والحجر واستخدم مهارة عقلك قبل يديك، وأنت يا مختار؟

-الأرض تزرع تنبسط عليها الأيدى بالجهد والعرق والكفاح يغذيها الأمل.. سنابل القمح قاربت النماء.. الماء كفانا فلم يدع قيراطا ولا

سهما إلا رواه والنفوس من قبل ارتوت منه حياة.. لكننا وقت الحصاد تلزمنا كل الأيدى.

قال كارم

-تقصد الرجال الذين اخترتهم للمران والتدريب.. أعتقد انك ستنجز مهمتك بما لديك من رجال فما سوف أطلعكما عليه يلزمك ذلك.

ونظرا إليه بترقب وحذر، واستأنف هو يقول بعد تفكير وتدبير

-لا بد من مهاجمة بريقع ورجاله فى أقرب وقت وأعنى بذلك خلال أيام، العيون الذين أوفدتهم يتقصون الأخبار من ناحيته أفادونى بأنه يرتب للنيل منا فور الحصاد ليستولى عليه أو يضرم فيه النار فيقضى علينا جوعا وينهب ما نمتلكه من أرض.

قال مختار والقلق يرتسم فى رنة صوته

-هو رجل خبيث.. لابد أن الجهم يرتب أيضا لأمر ما.

أجابه كارم

-يبدو أن الجهم سينتظر ما تسفر عنه الأمور بيننا وبريقع ثم يقضى على المنتصر فى ضربة واحدة، الأخبار تأتينى من هناك بأنه منهمك فى اختراع وسائل التنكيل والعذاب وكلما جاء ذكرنا بمحضره ضحك كالشيطان ساخرا وأشار بيده إشارة التهوين والاستصغار.

قال عبد الهادى

-ولم نهاجم نحن ونتكبد مشقة الإنتقال، أليس من الأصلح استكمال قوتنا وتحصين دفاعاتنا ودحر من يهاجمنا جاهلا باستعدادنا لملاقاته؟

أجابه كارم

-لرأيك صوابه لاشك، لكننى أهدف لمفاجأتهم من حيث لا يحتسبون وقبل أن تنشط حمية القتل فى صدورهم، كما أن قومهم قد أزعجوا الخلائق بصراخ الظلم والإستعباد وعلينا أن نفيد بصرختهم قبل أن تنعدم فى الهواء ثم يهلكهم اليأس. لم يكن لعباس حول ولا قوة وأثقل البطش جاثمة فوق أنفاسه بالأمس القريب.

وردد كلاهما

-ما هو المطلوب منا حتى يتحقق وعدك وينتصر رجالك؟

أجابهم كارم بإمرة القائد وحزم الزعيم

-الأستعداد للمعركة الفاصلة مع الجهم..

قاطعة عبد الهادى ومختار يكاد يلحق به تساؤلا وحيرة

-لكننا سنهاجم بريقع.. هذا ما فهمناه.

قال كارم كأنما يلاحق مستقبل الأيام.

-الحركة القادمة اكتسبت قوة الدفع الذاتى، لقاؤنا مع الجهم هو التحدى الحقيقى نحو الهدف وهو ما يهمنى كل الهم، فهو يبسط نفوذه على نصف الإقليم وشوكته قوية وأعوانه كثيرون ومشهورون بالشراسة ولا بد أن نتدبر وسيلة ما للتفوق عليهم.

قال عبد الهادى وقد زاد همه

-لقد فهمت مقصدك.

وقال مختار

-سوف يهدينا الله إلى الطريق الحق.. قد يمكننا مضاعفة الجهد بالنوع إن استعصى علينا بالكم لنقص الرجل.

وأذن لهما كارم بالإنصراف وبدأ يجمع رجاله وينظم صفوفهم ويوزع عليهم أسلحتهم ويهيؤهم للرحيل.

وفى الليلة التى سبقت وصول كارم وجنده كان بريقع ممدا فى خلوته فوق فراش من الكتان الأبيض تحيط به عدة فتيات حسناوات بعضهن ترتدين ثيابا لا تكاد تستر أجسادهن من فرط ما يكشفن من فتنتهن، وبعضهن الأخريات كن عاريات تماما إلا من بعض الزهور يتزين بها شعورهن ونهودهن وما بين أفخاذهن، هؤلاء كن مقبلات على بريقع بتدليك جسده بالزيت وتخضيبه بالعطور، وأولئك كن مشغولات بصب الجعة له فى كأس من ذهب وهن يغنين له أفحش

الأغانى لفظا وأكثرها إثارة لغرائزه وهو مستسلم لعبثهن به مطلقا حدود شهوته، ومنذ قليل كان ينشر الرعب والفزع فى كل من له سمع ونظر بينما الروؤس تتهشم بين يديه والعظام تتفتت، وفيما هو سادر فى عالمه السحرى إذا به ينتبه لصمت ساد فى محيط أذنيه وسكون كسكون القبور لا يحدسه غير ساكنيهم، وفتح عينيه يستجلى الأمر وكانتا تسبحان فى خيل من اللذة والانتشاء ليكتشف أن الفتيات الفاتنات قد اختفين من دنياه كأنما تبخرن فى الهواء وقبل أن يستبد به الغضب على من عصاه ويتوعدهن بالويل والثبور إذا به ينتبه إلى ما جعله يفزع فزعا فاق فى قدره ورهبته كل ما ظنه حاصلا فى نفوس ضحاياه.. فلقد أحاطت به من جميع جوانبه ثعابين وحيات بعدد فتياته تتلوى وتتراقص متلهفة للقياه، وصرخ بريقع صرخة استغاثة مدوية يصل مداها عظام قتلاه وليس من مجيب، وجحظت عيناه من الخوف والهلع وهو يلمحها تقترب منه والإصرار فى حركتها يسكن فيه حركته، وحسب أنه كابوس يعتصر باطنه وأنه سيفيق بعد حين كما هى عادته، لكن مادة الأشياء من حوله أهلكت حسبانه وأيقن بالفناء.. وفى الصباح وجدوه جثة هامدة.

وحين وصل كارم ورجاله أدهشهم الهرج والمرج الذى شاهدوه بين الناس وأوجس فى نفسه كارم أن يكون بريقع قد اشتم خبر الهجوم

فاستدعى الأعوان لأن ذلك يفقده ميزة المفاجأة، ولما استوقف أحد المهرولين واحتجزه سائلاً

-ما سبب تلك الحركة الزائدة؟

أجابه الرجل وهو يرتعش مما يراه من قوة كارم ورجاله

-يشاع أن بريقع قد مات ورجاله مجتمعون فى الساحة يتقاتلون لخلافته.. أنتم غرباء عن هذه الناحية، من أنتم بحق السماء؟

ولم يجبه كارم وإنما دفعه بلهجة آمره

-سرْ أمامنا إلى الساحة قبل أن يذبح الرجال بعضهم بعضا دون فائدة.

ومضى الرجل طائعا لما أمره، ولما وصلوا إلى المكان المحدد وجدوا أن ضحايا الطمع فى إرث بريقع يزيدون عن عشرة فصاح كارم بالرجل من فوق جدار عل

-أيها الرجل كفى وأنصتوا.

فصرخ فيه أحدهم

-ومن تكون أنت؟ إن كنت مصارعا أنزل إلى ساحة القتل لنتحداك.

وأوشك أحد رجال كارم أن يفتك به لولا إشارة منه بالإنتظار.. وأجابه كارم

-أنتم لم ترونى من قبل ولكن ربما سمعتم عن الإقليم الذى أديره من هذه الأرض وكيف تسير الأمور فيه لمصلحة الجميع.

وهنا صاح رجل آخر من المتقاتلين

-إنه هو كارم أبو الفضل ألم أخبركم أنه بالطريق إليكم؟ لقد قضى على آمالنا وأولى بنا التسليم، من كان يمكنه دحره مات.

وقاطعه الرجل الأول معنفا

-كيف نسلم أمرنا يا مغفل لرجل غريب.. إذا كان بريقع قد لقى حتفه فكل رجل فينا مائة بريقع.. أما أنت فقد هانت عليك نفسك.

وهنا تدخل كارم بحزم قائلاً

-الأرض لابد أن تتوحد والنهر ينتظم عطاؤه.. أنتم لا تصلحون لهذا العمل وحجتكم أنى غريب واهية، فكلنا فى هذه الحياة غرباء، انظروا لإخوانكم من حولى حين توحدوا أفلحوا وصلح حالهم، فكروا فيما يمكن أن تحققه وحدتكم معنا، يمكننا مواجهة الجهم بقوة واحدة فنقضى عليه وعلى تاريخه الأسود.. أتظنون أنه سيترككم لحالكم وأنتم لقمة سائغة لفمه النهم

وقاومه الرجل قائلاً بمكر

-أنت تخشى أن يقضى عليك لذا جئت تنشد العون.

وتسلح كارم بالصبر والحكمة وهو يجيبه

- لقد جئت برجالى دون علمى بموت طاغيتكم، أنا لا أهاب أحدا طالما تسلح بالظلم، لقد جئت لأخلص القوم من الفرقة والخلاف فيتوحد مصيرنا على الأرض.

وتدخل فى الحديث رجل ثالث فقال

- هو على حق فما كان يمكن لأحد أن يعرف بموت بريقع قبلنا.. لقد تمكن كارم من القضاء على هنداوى، تذكروا فهو من الأقوياء.

- لكن بريقع لم يكن كهنداوى والجهم غيرهما تماما.. نحن نراهن بمصيرنا.

قال كارم لاجئا للتلويح بالقوة وقد اصطف رجاله بأسلحتهم متحفزين لإشارة منه وجمع غفير من القوم يتقاطر إلى الساحة يرقب فى قلق ما يدور والمشاعر منقسمة بين الطموح لكارم وما يمثله من قيم والخوف من الحرب ونتائجها.

- ليس أمامكم سوى أحد اختيارين، إما أن تنضموا لجيشنا فيزداد بكم قوة ونتهيأ لمعركتنا المقبلة وإما أن أقاتلكم وأخلص الناس من بطشكم.. من يفضل إمرتى له ما للرجال وعليه ما عليهم سنعْطيه سلاحا ونمرنه مراننا، ومن يفضل التحدى فليبرز إلى الساحة ليكون عبرة لسواه.. ليحزم كل فرد فيكم أمره.

ثم توجه إلى الجموع المتراصة قائلاً

-لا تخافوا ولا تحزنوا سوف تتوحد الأرض وينتظم النهر ويعم الرخاء ولا يرهقكم الأشقياء بظلمهم، كل من يعترضنا مقضىّ عليه، أسألوا إخوانكم ممن حولى ألست بالحق أقول؟

وهلجت مشاعر الناس واصطخبت ردود أفعالهم وصاح منهم من يقول

-ويل لمن يعترضك أيها الأمير لسوف ننتقم منه انتقامنا من سيله الذى ذهب إلى الجحيم.

قال آخر

-كل من كانوا حوله جبناء الآن فقط يبرزون للتحدى ويدعون أنهم مائة بريقع.. وقد كانت آذانهم تصغى طاعة وعيونهم تنكسر استخذاء.

قال ثالث

-كلنا فى هذا سواء لولا أننا من المظلومين.

وبرز صوت قاطع الحدة والصراحة متوجها لكارم بازدراء

-أمّا أنا فلست منهم ولسوف أقتل الفتنة فيك أيها الرجل الغريب.

وأسرع أحد رجال كارم نحوه ليخرسه فعاجله الأول بخنجر فصرعه وصاح بالقوم

-أرأيتم، رجاله يقتلون كأى رجل ولا يختلف هو عنهم فى شىء.. فليبرز لى إن كان صادقا.

وتقدم منه كارم والرجل يتربص به كالنمر الجائع لا تعرف الرحمة لقلبه سبيلاً كأنما كارم هو الحائل بينه وبين مجده ومناه، وظل يدور حول كارم فى خفة يتحين الفرصة للإنقضاض والفتك به..

ولا حظ كارم أنه يرتدى فى يديه قفازا انغرست فى ظاهره أنصال حادة كأنياب السباع، وبينما هو يتدبر نقطة ضعفه ويتحسب حركته إذا فى غفلة من الزمن تقبض يدا الرجل على عنقه لا يعرف كيف اختصر الزمن بها إلى العدم، وبدأت اليدان تضغطان على رقبته فى قوة وإصرار والهواء يتناقص فى رئتيه بازدياد الضغط على حنجرته وقصبة هواه، وبدأ رأسه يدور والدماء فيه تعانى من تسرب قوة الحياة، وتذكر كارم فى لحظة وامضة نصيحة شيخه عبد الجليل.. "لا تبدد قوتك فى هذه الحالة بمقاومة اليدين المطبقتين حول عنقك فسوف تخور قواك وينتهى أمرك فى لحظات لأن خصمك فى وضع أفضل ولن يزحزحه مقاومتك ليديه عن هدفهما الأكيد.. عليك إذن أن تركز ما بقى من قواك فى ضربة واحدة توجهها لخصمك تلفت بها انتباهه عن رقبتك فتفلت بها فى تلك اللحظة بمقاومة أقل.. الألم الناتج عن ضربتك لابد أن يكون شديدا حتى لا يمتصه خصمك دون أن

يخسر موقفه". وكانت تلك اللمحة فى الذاكرة أسرع من أن تصوغها كلمات فقد استجاب لها جهازه العصبى بالسرعة الواجبة فدفع ركبته بكل قوة فى خصيتى الرجل فسبب الألم المطلوب، وضعفت القبضة فوق عنقه فتخلص منها ثم هوى بكلتا يديه فوق رأس الرجل فتمدد على الأرض مقضيا عليه، واسترد كارم هدوءه واتزانه بعد قليل ثم علا صوته فى الناس قائلاً

-ألا زلتم تهفون لمزيد من الدماء؟

وإذا بالجموع تهتف فى صوت بدأ مسموعا ثم ارتفع إلى هدير يصم الآذان

-فليحيا الأمير كارم.

وكانت إجابته بعد أن استردت الجموع اتزانها ووعيها

-فلتستعدون الآن للقاء الجهم.. أشعر بمرارته فى فمى منذ تلك اللحظة، لكن وحدة الأرض لابد أن تكتمل.. وتلك نبوءة إقليم الشمل.. نصيبنا من النهر غير مضمون وهو قابع فى مستواه.

ووصلت الأخبار إلى الجهم بعد أن غلا فيها الغلاة بما عنّ لخيالهم من صور التضخيم والمبالغة، فحاولوا أن يذهلوه بأوصاف القوة التى تمثلت فى كارم وشيعته، فمن قائل أن وجهه تحيطه لبدة كالأسود تؤكد اختلاط أجداده بسباع البر، ومن قائل أن صوته تهتز له الأسماع

مهما تباعد أصحابها وكثروا وتفرقوا فتصيبهم بالرعدة والخوف، كيف لا وله صلة بعوالم العفاريت والجان.. وقال أحدهم بأن عينيه تومض بوميض السحر فتصيب من ينظر إليه بالعبودية والرق.. هذا يفسر طاعة رجاله له وتأثيره الهائل على الأغراب فيحولهم فى لحظات إلى أتباع مخلصين. ولم يكن الجهم من هؤلاء الجبابرة الغافلين المغترين بظاهر بطشهم وطغيانهم الذين يظنون حين تخضع الأعناق لحكمهم تستسلم أيضا الضمائر والقلوب، إنما كان يتميز مع قوته وبطشه وعبقريته فى التنكيل والتعذيب بمكر وخبث طوية يسمح له بالنظر فى أمر أعدائه وتقديرهم بعيدا عن خداع حاشيته وتهويلهم، فهو لم يكن بحاجة لمغالاة الغلاة بقوة كارم ليتنبه لنده المقبل وحقيقة وجوده فى عالمه، والحقيقة التى لا جدال فيها أنه استطاع خلال أعوام قليلة أن يبسط نفوذه على ما يقرب من نصف الإقليم ودان له الجميع بالطاعة الحقيقية وليست طاعة الإذعان والخوف التى يفرضها على الملأ من حوله، مثل هذا الند الذى يأسر الناس بحبه وقدوته لا يستهان بقوته سواء غلا بها الغلاة فتوهموه ابنا للسباع وخليفة للعفاريت أو هون من أثرها زبانيته فادعوا إنما الحظ حالفه حين حطم هنداوى نفسه بغفلته، ولقى بريقع حتفه يوم الهجوم عليه دون أن يكون لكارم ذراع قوة فى دحض

نفوذهما وإرث ملكهما.. فهو القدر! وقال الجهم لنفسه ساخرا من هذا الرأى أن رجلا يحالفه القدر لمثل هذه النهاية أحق أن يهاب جانبه وألا يستهان بشأنه، وكانت الحقيقة الأخرى التى لم يجد مفرا من مواجهتها هى أنه بحكم موقع أرضه يتحكم فى مستوى النهر وعطائه للإقليم كله ونصفه ينتمى الآن لكارم ورجل مثل كارم يتمادى نفوذه بتلك السرعة لن يغفل عن ذلك الواقع وسيسعى لتغييره حتى لو قبل بدفع الإتاوة إليه، ولا يعنى ذلك فى محصلته سوى الحرب بينهما لأن الجهم بطبيعة الحال لن يسلم لكارم بأسباب نفوذه فتلك الأسباب نفسها كافية لترجيح كفته عليه، وأيضا كارم لن يخضع لهذا التصريف وإلا سيتعرض عاجلاً أو آجلا لاجتياح خصمه له وإبادته فذلك حلمه أيضا أن يمتلك كل شىء.. إذن فهو القتال.

وبدأ يستعد له بكل ما أوتى من حيلة واقتدار، فلم يكتف بحشد الرجال وتكثيف السلاح وتخزين الغلال، وإنما بعث بشياطينه يتغلغلون فى أعماق خصمه ويفتون فى عزائم رجاله وأعوانه المخلصين وقال لهم قبل أن يطلقهم لمهامهم الجهنمية وقد جمعهم فى معبده العظيم

-أنتم رسل شر، سلاحكم الدسيسة والغواية، ضعف الرجال فى المال والمرأة فخذوا ما شئتم من أموال واصحبوا معكم أجمل

النساء.. أريد أمرا واحدا لا سواه، أن ينفض من حول كارم أعوانه المخلصون.

وظهرت فى ربوع كارم جماعات من البشر ارتدوا مسوح الغجر وتفننوا فى اختراع الحيل العجيبة التى تجمع الناس حولهم وتصيبهم بالدهشة وتأسر فضولهم، فعرضوا عليهم دجاجة تضع كل يوم مائة بيضة من الذهب، وببغاوا يتحدث بكل لسان، ووزعوا على من شاء مسحوقاً سحريا يخلق لمن يستنشقه فردوسا لا يشاركه نعمه أحد، وكان أكثر ما شغل حديث الرجال والنساء تلك الراقصات البارعات اللائى كن يتمايلن بأجسادهن العارية فتتبدى منها الأسرار الخافية.. كان كل شىء متاحا لمن يشاء فى البداية بلا مقابل ثم أصبح له سعر زهيد ثم أخذ فى ازدياد.

وكثر اللغط وانتقلت الأنباء وتكررت الحوادث حتى وصلت لكارم فظن الأمر لا يعدو اللهو واللعب البرىء، ثم تفاقمت المشاجرات بين الرجال وضعفت قوة إحتمالهم وكثرت شكواهم؟ فأوفد "مختار" لتقصى الأمر على طبيعته ومعرفة حقيقة ما يجرى، وذهب الرجل طائعاً وغاب أياما ثم أصبحت الأيام أسابيع واعتصر القلق نفس كارم والزمن يمضى دون خبر يقين، ولما شعر عبد الهادى أن غياب مختار بدأ يؤثر على قائده تأثيراً ملحوظا استأذنه أن يذهب فى

أثره فربما أصابه ما يكرهون فأذن له كارم، وبعد أيام قلائل حضر إلى كارم رجل طاعن فى السن تنطق ملامحه بالذعر وتنبىء حركات يديه وهو يتحدث بهول ما أصابه، وفى البداية لم يفهم كارم حديثه من كثرة خلطه وتشابكه، فسأله ليهدىء من روعه

-من أنت يا عمى؟

فأجابه الرجل

-أنا المعتدى عليه.. أنا والد قيثارة.

فقال كارم وأساريره تنبسط لذكر الفتاة الجميلة

-أهلا بك.. ما سبب انزعاجك إلى هذا الحد الغير مفهوم؟

فأعاد عليه الرجل حديثه بطريقة أكثر فهما

-خطفوا قيثارة يا سيدى.. كما قضوا على مختار وعبد الهادى.. وأهلنا رجالا ونساء.. واليوم فى الصباح اختفى لهم كل أثر وكأنهم عصبة من العفاريت.

-من هؤلاء تقصد؟

-الذين وفدوا على أرضنا من حيث لا نعلم وظننا فى بادىء الأمر أنهم عصبة من المهرجين.

وأدرك كارم ما يعنيه الرجل واستيقن أن خطرا كبيرا قد أحاط بأعوانه إذا صدق ما وصفه الرجل، وبدأ الخوف يزحف إلى صدره وشواهد

صدقه تتلاحق على ذاكرته، وانطلق مسرعا ببعض من صادفهم من رجل إلى حيث وصف الناس مرتع الغجر ظانا أن سر عته فى طى المكان تختصر من ماضى الزمن وما لحقه فيه من حكم القدر. ولم يعثر لهم على أثر وقل آخر من شاهدهم يرحلون أن وجهتهم كانت نحو استواء النهر..

ولمن يكن لذلك غير معنى واحد تشكل فى ذهن كارم برغم كل مقاومته للخوف الذى يصحبه.. أنهم فى طريقهم إلى أرض الجهم وأنهم إنما حضروا إلى هنا ليشتتوا شمله ويفتنوا رجاله وقد غفل هو عنهم فيسر لهم أمرهم وأعانهم بغفلته.. ثم أفزعه ما توالى على ذهنه بعدئذ من أن الجهم لن يجد لحظة أفضل من تلك ليقرر مهاجمته والقضاء عليه، وإذا كان قد مكر كل ذلك ورتب له فلن يتوانى عن تنفيذ خطوته التالية فور وصول رسله إليه يحملون بشرى الإنتصار، وازدادت الغصة فى حلقه وهو يتصور الجهم برجاله وسلاحه وقد أحدقوا به دون معين أو نصير وقد فقد أهم رجلين عنده فلا يعرف لهما مصيراً وأصاب الآخرين الذهول والغثيان..

وتذكر قوله بأنه يشعر بمرارة اللقاء بالجهم دون أن يميز قدر تلك المرارة أو نوعها. وفى الصباح التالى وصلته الأنباء أن خصمه ومن معه من جبابرة المحاربين قد اقترب من مشارف الأرض تختفى

الكائنات فى مكامنها من هول ما يطالعون فى صفحتهم من وحشية وما يترقبونه من دمار.

وقدر كارم الوقت المطلوب لوصول المعتدين إلى حدود أرضه فوجده قصيرا لا يكفيه لاستنهاض الهمم التى أنهكتها الغواية وأفزعتها المفاجأة، أو لإعداد خطة للدفاع والزود عن أرواحهم وعرضهم بله الغلبة والفوز بأرض الآخرين، وأوشك إيمانه بقدرته على تحقيق هدفه أن يذوى ويكتنفه القنوط. وفى لحظة من صفاء النفس واستيحائها لقدراتها الكامنة، حين يلهم الإنسان بمواطن الأمان عند إحداق الخطر ويرى ببصيرته ما يغيب من هول المفاجأة عن بصره، لمع خاطر فى ذهنه كلمعان الشعاع على سطح المرآة فى قبة مظلمة، فانطلق مستجيبا لما أضاء فى صفحة نفسه من مبادرة. واستدعى بعض الفتيان ممن توسم فيهم الفهم والطاعة وقال لهم فى تكتم وحذر

- أمر أهليكم وأرضكم منوط بإنصاتكم لما أقول وتنفيذ ما فيه دون تردد أو محاورة.

ونظروا جميعاً نحوه فى جرأة مشوبة بالترقب، ثم قال أحدهم

- لم نسمع عنك من آبائنا غير الخير وسوف نفعل ما تأمرنا به.

- تعرفون مكان صوامع الغلال؟

رد أحدهم

-نعم فى طرف الأرض

وأكد آخر بدا أكبر سنا وأكثر دراية

-من الجهة التى سمعنا أن الجهم يقصدها، كانت آخر مرة هاجمنا فيها واستولى على الحبوب وأنا بعد طفل صغير، من بعدها دفعنا الإتاوة لأعوانه أو لخصومه.. لايهم.

قاطعه كارم

-لا وقت لحديث الماضى، أريدكم أن تنطلقوا بكل سرعة نحو تلك الصوامع وتضرموا فيها النيران فأراها عظيمة طاغية ويراها كل أهل الناحية ومن سيأتى نحوها يتكاثف عليه دخانها فيعمى رؤيته.. هيا ليس هناك وقت.

ولمح ترددهم بالرغم من وعودهم فنظر إلى أكبرهم سنا وأكثرهم دراية وقال

-أنت تفهم.. اذهب بهم ونفذوا ما قلت، لن يهزمنا الجهم بمشيئة الأقدار.

وبالرغم من عدم فهمهم لأمره أطاعوه وانطلقوا فقد أصابهم ما يصيب محدثيه من سحر.

واندلعت النيران وعظمت وطغت وهب جميع الأحياء فى اتجاه واحد يطلبون النجاة وحصاد السنين تلتهمه النار ومعه مستقبل الأيام، ووجدوا كارم بانتظارهم فى الناحية الأخرى من الإقليم واندفع فيهم صائحا

-يا قوم هذا سلاحكم فاحملوه وهيا نطوق الجهم ورجاله من حيث لا يحتسب فنقضى عليهم أو نلقى بهم فى النار ثم ننطلق نحو أرضه فنغنمها ونضمها إلى أرضنا ونوحد الشمل.. سوف نقتسم جميعا كنوزه وخيراته ونسيطر على قدرنا من النهر ونحطم آلهته الغبية العقماء، ليس أمامنا غير هذا السبيل أو ننتظر قدرنا على يديه فى خنوع وذل وهو لا يعرف معنى الإشفاق، لقد كاد لكم ودبر بخبث طوية وأسرع ليحطم وحدتنا ووجودنا بضربة قاصمة فلا تعطونه الفرصة، سوف نفاجئه كما فاجئنا ونحطمه، هيا إلى السلاح واتبعونى فلا أحد يعرف الطريق الذى أسلكه.

واندفع الناس من خلفه وقد قبض كل منهم على قطعة من سلاح، وهانت عليهم دنياهم بمستقبل ذليل وأقبلوا على عزة النفس وكرامتها وان كانت بأحضان الموت.. وكلما تعالت النيران واسودت السماء زاد اندفاعهم وتمنوا اللقاء.

ولما اقترب الجهم وأتباعه من ربوع كارم وشاهدوا النيران العظيمة المضرمة فى صوامع الغلال شعر بالغرور وأخذه زهوه بقوته وانتصاره مأخذا عظيما وأشار إلى النار وهو يقول لجنده

-انظروا لقد يئس الناس من مقاومتنا وقد علموا بهجومنا عليهم فآثروا الهرب والفرار، وأشعلوا النار فى حصادهم لتحميهم من اقتفائنا لأثرهم واستئصال جذورهم.. أرأيتم ما يصيب الرجال من هلع لمجرد أن يتوهموا صوت قدمى يقترب من ديارهم، هذا دليل فوزنا واستحقاقنا كل ما تبقى من أرض الشمال فما أن تخمد نيران الجبناء حتى نتوزعها وننهب ما تبقى من ديارهم، أما الآن فاستريحوا أيها الشياطين من قتال لم تقربوه وانعموا بما شئتم من خمر ونساء.. أما جائزتى الليلة فهى قيثارة، أليست هى الفتاة التى وعدت كارم ببكارتها يوم انتصاره علىّ، حق لى أن أدرك متعة ما يستحيل على كارم أن يدركه ائتونى بها فى خيمتى لأرى ما تمتلك.

وبينما رجال الجهم يضعون سلاحهم ويتهيأون لفسقهم ويتعالى ضحكهم توحشا وغلظة متنذرين بأفحش السباب، إذا بأشباح تقترب منهم تزداد كثافتها وانتشارها حولهم كلما قصرت المسافة إليهم، وظنوا فى بادىء الأمر أنها أوهام الخمر اختلطت بسحابات الدخان فشكلت فى وعيهم جنودا وسلاحا، ثم انقلب ظنهم يقينا حين انقشع

الدخان بعد حين عن قوم حقيقيين يحملون سلاحا مفزعا تهلك به الحياة. وهاجوا هياجا شديداً وارتدوا على أنفسهم حائرين وتحولوا من قتلة إلى مقتولين، و ظل الموت يحصدهم تارة بالحراب وأخرى بالاحتراق حتى أبيدوا.. ولم يتمكن أتباع كارم من تمييز الجهم من فرط ما أصاب القتلى من نكل.. وصاح فيهم كارم ينبه من غفل فيهم عن الغاية

-هيا يا قوم لنزف البشرى لإخوانكم ونعلن وحدة الشمال لأعد نفسى لموعدى مع أخى ربما كان فى انتظار.

وتقدم منه رجل عجوز ميزه على الفور.. قال

-أرجو ألا يكون فى انتظاره ما آل للآخرين فى انتظارك.

فرد عليه كارم منزعجاً

-ماذا تقصد يا والد قيثارة؟ إن وعدى وفاء ودينى قضاء، لا بد أن قيثارة بين الأسرى أحضروها إلىّ وفتشوا عن إخوانكم وعبد الهادى ومختار..

سوف أتزوج الليلة منها وأرتدى قميصى من يديها.

قال الرجل العجوز :

– لقد فات الأوان يا كارم.. قيثارة قتلت مع من قتل، لقد اختارت قدرها منذ البداية، هكذا حدثتنى النجوم بشأنها ولا حول ولا قوة لى فى محاورتها.

وأصيب كارم بالغم والحزن بعد فرح الانتصار وأشفق عليه الرجل فقال له بعد حين

– ربما كان انتظارك لأخيك أو انتظاره لك أفضل وأحق.. إننى أعرف صدقك وإن كنت لا أفهم مقصدك وليسدد خطوك الإله. نعم سأثكل ابنتى ما بقى من عمرى لكن الأرض الطاهرة ستجمع رفاتى برفاتها يوما، والفضل لك أن يحق لنا الأحلام.

وأمر كارم قبل أن ينزح برجاله نحو غايته أن تدفن قيثارة فى أعظم مدافن الإقليم وأن تكفن بدثاره ويكتب على شاهدها أميرة الإقليم.

وانتشرت أخبار الإنتصار فى جميع الأرجاء وساد الناس شعور بالتفاؤل لمستقبل آمن وزمن جديد يبشر به يخلو من الأحزان وأصبح كارم فى ضمير المخلوقات إلها أو رمزا لإله. أما هو فتنازعته مشاعر متناقضة وهو يقترب برجاله الذين زادوا وكثروا وتكاثفوا من موقع قصى فى أرضه الموحلة من شمال القرية وجده أقرب نقطة التقاء بمن يعبر أرض الجنوب قاصدا ملتقاه. كان يتذكر ملامح أخيه وهى تتوارى عن عينيه منذ سنوات ويتساءل فى إشفاق كيف تبدلت

وتغيرت واختلط بها الزمن، واسترسل حديثهما الأخير فى ذاكرته واضحا وهما يتواعدان على اللقاء ليتما الرسالة وينجزا تكليف الأقدار، وتساءل فى قلق هل حقق أمين وحدة الجنوب كما فعل هو بالشمال فأصبح الأمر مجرد اتفاق بينهما ويتحقق الحلم الأكبر وتمسى نبوءة الشيخ عبد الجليل واقعاً، أم أنه أخفق فى مقاومة أبو الخضر والأعسر والمندوه كما كان يمكن له أن يخفق فى حروب أعدائه لولا عناية الأقدار.. أو ربما اتحدوا ضده وتآمروا عليه فواجهوه بما لا يطيق.. حينئذ فطريق الكفاح لازال أمامه طويلا والتضحيات فى انتظار، وتذكر قيثارة وحبه لها الذى خبأه فى طوايا قلبه منذ لحظة مولده فلما استدعاه باعتزاز وشوق اكتشف أنه بلا عمر فى هذه الحياة، وعبد الهادى ومختار رفيقا كفاحه وأخلص من أطاعه وأشار عليه قضت عليهما الفتنة وأزيحا عن عالمه بكل قسوة وإجبار، ودعا ربه ألا يكون طريقه أطول مما سار فهو لن يحتمل المزيد وكفاه ما كان.. ثم ذاع فى سمعه قول الشيخ "الغاية لابد أن تنال" وشعر بالأحزان. ثم أفاق من غفوته على صوت أحد الرجال يصيح

-يظهر أمامنا جمع كبير من الناس، تزداد صفوفهم وتتميز ملامحهم كلما اقتربنا منهم.. وأكد آخر

-انهم أهل الجنوب، أعرف ملامحهم مهما تباعدوا، قوم شديدو البأس شجعان.

ورد الثالث

-ولم يحتشدون بأسلحتهم.. أهى حرب أخرى؟

فأجابه أحدهما

-نحن لا نعرف غير طاعة مليكنا وقائدنا.. بأمره نخترق الصفوف مهما تراصت ونواجه القوم مهما شاع بأسهم فى القتل.

وتدخل كارم فى الحديث قائلاً وهو يشعر بالاعتزاز والفرحة تغلبه

-لا تخشوا يا إخوانى إنى أستشعر وجود أخى بينهم، فهم أهل وعشيرة، شبح الحرب يفزع بصدق الغاية.

وفجأة اخترق الصفوف نحوه رجلان يرتديان شعار الإقليم ويحملان بينهما رجلا ثالثا تنزف منه الدماء بغزارة ويبدو أنه يفارق الحياة، وبدأت الفرحة التى شعر بها منذ قليل تغوص فى قلبه وأحدهما يفسر المشهد قائلاً.

-استفزه أحد المحاربين من المعسكر الآخر ثم رشقه بخنجر فأرداه كما تراه.

وغضب كارم وصاح

-ألم أحذركم أنهم ليسوا بأعداء؟

فأجاب الرجل

- لقد أهين يا سيدى فى قائده، ولا يصبر رجل على التهوين من قدرك مهما كانت العاقبة.

وأردف الرجل الثانى الذى يحمل القتيل

- لقد قال الرجل السفيه أن أميرهم أحق وأقدر بإمارة الأرض كلها منك أنت يا سيد الرجال فرد عليه شهيدنا أن الأقدار عهدت إليك أنت بقضائها وأن ما أظهرته من شجاعة فى مواجهة الطغيان ينبئ عن صلتك بالسماء.. ثم أكمل الرجل الأول قصة زميله

- واحتد القاتل واختنق صوته وهو يصف حديثنا بالكذب وأنه لا أمير غير أميرهم استخلصته العناية ووهبته من أسرار القوة ما به يكتسح كل ما يعترضه فوحد الجنوب وكان وهما من الأوهام، وأنهم ما حضروا إلى هذا الوادى إلا ليخضعوا الشمال ويقهروا أهله لتكتمل سيطرتهم على القرية بأكملها، ثم قذف صاحبنا بخنجره وهو يصيح هذا جزاء من يدعى.

وسألهما كارم والتفكير يستغرقه

- هل أشار الرجل لإسم مليكهم؟

فأجابه أحد الرجلين

- لم نلحظ ذلك.

وعاد كارم يسألهما

- وهل عرف من يكون قائدكم؟

فأجاب الرجل الآخر

- نعم فقد رددنا اسمك مرارا وكان سببا لثورته.

وبدأ الاستياء والغضب يسريان فى نفوس المحيطين ممن تصل أسماعهم فحوى ما يدور، فمن قائل ويل لهم منا انتقاما لمن قتل، ومن قائل لسوف نبيدهم عن آخرهم لو أذن لنا الأمير، ومن قائل سوف نجعلهم طعاماً لكواسر البر وتماسيح النهر ونريهم لمن إمرة الأرض. وبينما غضب الرجال يستشرى وتتعالى حدته وكارم مشغول بتدبر الأمر وفهم حقيقة ما يدور والقلق يحتل أعماقه إذا بالجمع كله يلتفت نحو هدف يقترب، صورة إنسان يعتلى حصانا ضخما تحيطه كوكبة من الرجال الأقوياء أطوالهم تفوق ما هو معهود لبنى البشر من قوام.. ووجف قلب كارم وبصره معلق بوجه الفارس يميز ملامحه كلما اقترب ويستدعى من ذاكرته ما أبقى فيها الزمن من شيات، وأشار على الناس بالانتظار، واقترب منه الراكب فتأكد مما يراه وهالة ما يعكسه من قوة واقتدار لم يظنهما أبدا ممكنين لبشر ثم وصله صوت انتظرته أذناه سنوات طوال لما يحمله من بشائر اللقيا وأمانى الإلتقاء.

-إنه هو كارم يا رجل.. انتظرتك حتى ظننت أنى لن أراك من طول الإنتظار ولم يكن هناك بد من مواصلة الكفاح.

وسمع كارم نفسه يقول مخاطبا محدثه

-أمين! يالها من روعة أن يعد القدر ثم يفى مهما تكن إرادة الموعودين.

ولم يسترسل أمين فى اتجاه أخيه وقد لاحظ التردد فى عيون من حوله من رجال، ثم قال كأنه يخاطب خصمه فى ساحة قتال

-أهان رجالك أحد رجالى، ولم يحدث قط أن مست كرامة أحدهم دون انتقام. ولما علمت أنك قائدهم أخبرت الرجال أنك لن ترضى بما حدث وستصيب بعقابك المجرمين فدعوت بعضهم ليشهدوا توقيع العقاب فتهدأ ثائرتهم ونشرع فى استلام الولاية على الشمال منكم ونتمم المهمة التى كلفنا بها الإله.

وذهل كارم مما سمعه وظن للحظة أن رجاله قد كذبوه، فحدقهم بعينين متهمتين فلم يهتز أحدهما وقال اللذين يحملان القتيل

-لقد قلنا الحقيقة.

وكأن ذلك لم يكفه فتوجه إلى أمين بالسؤال وهو متحير

-عن أية كرامة تتحدث يا أخى وممن يكون الإنتقام، هل ينتمى هذا القتيل لرجالك الشجعان أم لرجالى المجرمين؟!

ثم أضاف وهو ينظر فى وجوه قومه متعجبا

-وعن أية ولاية يتحدث أخى العزيز؟

أجابه أمين وهو لم يزل يعتلى صهوة جواده المهيب

-قد أهين رجالى لما مس قائدهم من تطاول وهو سبب كاف للإنتقام ممن تجرأ على ذلك.. أنتم لا تعلمون ما وراء هؤلاء الرجال من قوة وعتاد وما يمكن لغضبتهم أن تفنى من وجود.. أنت تعلم يا كارم أن السماء فوضت أحدنا لأمر قدرته، وأنا لا أندفع لقهر القوة إن كان ندى يعلم ما يريد.

قال كارم وقد بدأ يستوعب ما طرأ على أخيه من تحول وتغيير

-وهل تعلم أنت يا أمين ما وراء رجالى من تاريخ فى النضال والكفاح وما يملأ نفوسهم من عزيمة وإصرار؟ هل تعلم كم من حروب خضناها وانتصرنا فيها جميعا.لنقف منك موقف الند كما وصفت؟ أرجو ألا تغرنكم قوتكم وعتادكم فأنتم لا تعرفون بعد ما وراءنا؟ ولم التهديد بالقهر والانتقام وأنتم البادئون بالظلم والعدوان؟

وسرت روح المناهضة فى عزائم الرجال وانفعلت كبرياؤهم بما يدور من حوار وعلت الهمهمة معبرة عن السخط والتمرد على ما يجرى وبدأت تصل آذان المتحاورين أقوال الرجال من الطرفين

تدور كلها حول التحدى والعناد والعبرة بالاختبار، وعاد أمين يقول مخاطبا كل الرجال وليس كارم بخاصته

-ربما كنتم أشجع المحاربين ولكن أية شجاعة تستطيع أن تقهر مخترعات القوة؟ إن ما نملكه محا من طريقنا أى عصيان.. لقد سمعتم بالطبع عن أساطير البطش التى شاعت فى الجنوب.

عن "أبو الخضر" و"الأعسر" و"المندوه"، لا يقارن عنفهم بعنف أعظم داهية واجهتموه حتى الجهم.. كل هؤلاء أبدناهم فى يسر لأننا سبقناهم فى زمن القوة وحولنا سبقنا إلى سلاح لا يقف أمام قوة إفنائه أية شجاعة متلحة لبشر.

وانتظر قليلا والرجال يصغون لحديثه باهتمام ثم أضاف

-لهذا كانت الكرامة عندنا غالية لأن مقياسها يختلف، لهذا لن يهدأ رجالى بغير عقاب شديد ينزل بحفنة من رجالكم أنصتوا لإهانتنا فلم يعتذروا وينبهوا من غفل.

وصرخ رجل كارم بعنف وعناد

-لا يهمنا ما تهددنا به أيها الغريب.. تهون الحياة ولا نفرط فى أرضنا الغالية، كرامتنا أيضا غالية ولن نقبل منكم اعتذاراً!

ثم برز صوت من بينهم يقول

-ظننا إخوتك لأميرنا تميزك عن سواك.

فنظر أمين إلى كارم وهو يردد فى هدوء

-الغاية لابد أن تنال أنه يذكر ذلك جيداً.. وإنما أجنبكم الفناء.

وسأله كارم وهو مستغرق فى تفكير عميق

-وهل نسيت يا أخى بأن القوة وسيلة وليس غاية وأن الاقتتال بيننا حرمته الآلهة؟

فأجابه أمين واثقا

-إذن فليستسلم جيشك ولتسلم بطاعتى وليتحقق القصاص كما نراه.

فقال كارم وغيظه يخالط حزنه

-هذا أعظم من أن يجيبك إليه أحد لديه قدر من الكرامة وعزة النفس مهما بلغت قوتك أو ضعفه فكيف أفعله بإرادتى وقد وهبنى الإله من الرجال أخلصهم طاعة وأشدهم بأسا وإباء.

فنظر إليه أمين بثبات ثم قال

-فأنتم إذن تطلبون القتال؟

واستغرق كارم فى استلهام ذاته واستشعار ضميره وتقديره موقفه.. أمور كثيرة لا يعرف حقيقتها ولا يبلغ إدراكه لها مبلغ اليقين أهمها تلك القوة التى يتحدث عنها أمين وكأنها قوة الجان، أنه لا يذكر عن أخيه صفة الكذب والخداع لكنه لا يستطيع أن يميز بدقة ما تغير فى

أمين مما ظل على ثبات، أيضا رغبة رجاله فى القتال والذود عن أرضهم وعدم الاستكانة للتهديد مهما بلغ صدق صاحبه لا يطمئن تماماً لرصيدها من القوة الحقيقية المطلوبة فى ميدان المعركة خاصة بعد حربهم القريبة ضد الجهم ورحلتهم المتصلة إلى موقعهم الحالى، كما أنه شعر بمسئوليته فى توطئة نفوسهم لسلام دائم وهو يصحبهم للقاء الأخ المشوق بعد طول غياب ليبلغ كل منهما مناه، فإذا بهم يواجهون رصداً للقوة القاهرة المنطلقة نحو غايتها دون التفات لنداء حق أو ضمير، واستخلص كارم بعناء تقييمه للمسألة بأن المسئولية تقع عليه وحده والموقف يتطلب منه المواجهة المفردة.. فقال لأخيه والرجل جميعا ينصتون

- نعم لا مفر من التحدى فهو المحك الحقيقى للصدق، لكنه فى حالتنا هذه ينحصر بينى وبينك فقط ومن ينتصر إلهه تدول له الأرض ويحكم الرجل وتتحقق به نبوءة السماء، بهذا نحفظ لقومنا كرامتهم ونصون كبرياءهم وعزتهم فهذا حقهم علينا.

وفوجىء أمين بتحدى كارم له على الملأ وخشى التردد فى الجواب أن يفسر بالضعف والسفه.. ولم يجرؤ أحد من أتباعه بالتقدم ليحل محله فى قبول التحدى كما قد يحدث فى ميادين القتال لأن

المتحدى فى الحقيقة أخوه ومكانته فى قومه تماثل مكانته وبمثل هذه الجرأة يمتهن القائد.

ولم يجد أمين طريقة ليعلن ثباته واعتداده إلا أن يقول مؤكدا

-لكن الرجل يا أخى لن يقبلوا نزالا بالعصى كما كنا نفعل ونحن فتية.. لن يصدقوا قتالاً إلا أن يشهده معنا ملك الموت من قريب، فهل تملك يدك قوة قتلى؟

وأجابه كارم بصوت لا يكاد يسمعه أحد

-اليد تملك القوة دائما إنما السؤال للقلب.

ثم أكمل بصوت مسموع

-هذه اللحظة لا يفكر المرء سوى فى أرضه ورجاله ثم تهون الحياة.

فقال أمين وهو يشد لجام جواده متوجها لمعسكره

-لقاؤنا إذن مع طلوع النهار.. هيا يا رجل.

وأمر أمين حارسه ألا يسمح لأحد بدخول خيمته واختلى بنفسه يتأمل ما سبقته الأقدار فى ترتيبه مما فاق استعداده وتصوره. لقد حسب أن ما وصل إليه من مدارج القوة كاف ليقنع أخاه ومن معه بالانضواء للوائه وقبول طاعته فيحفظ على الجميع الأمن والسلام فإذا بأخيه يعترض طريقه بمنطق مختلف ويرغمه على قبول التحدى كيفما كانت نتائجه! إن أخاه لا يعلم طبيعة القوة الهائلة التى وضع يده على

مفاتحها ويصر بجهل أن يكون الاختبار حاسما ونهائيا، وتذكر أمين ما دار بينه وبين كارم من حوار وهما يفترقان من منذ سنين على وعد باللقاء وحزن الفراق يكبل خطواتهما المتباعدة وهم الوحدة يثقل قلبيهما حتى توارى بهما المكان واختلف، كانا حينئذ أصغر سنا وأجهل بخبايا الوجود.. إنه أيضا لا يعرف كيف دار الزمن بأخيه حتى توحد له إقليم الشمال ودان له أهله بصدق الطاعة لكنه لا يظنه واجه مثلما واجهته به الأقدار منذ لحظة افتراقهما من هول التجربة وقسوة الاختبار، وكيف انبعثت من ذاته قوة لم يعهدها وتفجرت في روحه أسبابا للوجود فاقت ما ضمنته حكمة الشيخ عبد الجليل ومآثره، فلقد قضى شهوراً عصيبة تائها في الأحراش لا يعرف له مأوى أو سبيلاً يصارع الوحوش ويقاتل الحيات ولا يحفظ عليه الحياة سوى لحومها حتى برز له وحش لم يعرف له اسما ولا وصفا من غرابة منظره وبشاعة مشهده وما يبثه من خوف وهلع في نفس من يراه، وظنه في البداية رمزا لمخاوفه وأحزانه وشكلا انعكس من أعماقه على دنياه الرائية، لكن حركته المتقدمة في اتجاهه أكدت له أنه هدف أكيد لواقع محسوس. وبدأ أمين مدافعا عن وجوده مشتبكا في قتال غريب دام ليالي وأياما متصلة وكأن الزمان قد فقد معناه في تلك البقعة من الأرض، واصطفت الخلائق من حوله تراقبه وتتوقع له

مصير من سبقه ممن شاهدته يمضى من هذا الطريق، لم تظهر قلقا أو تبدى فضولا فتكرار النتيجة مؤكد فى إدراكهم لكل من يلقى به قدره إلى هذه الناحية من العالم، ولكن استمرار الصراع وامتداده عما ألفوه من زمن شغل وعيهم ودفعهم للترقب والانتظار حتى حدثت المفاجأة وتمكن من صرع الوحش وإزهاق روحه وإخماد أنفاسه إلى الأبد حينئذ قال قائلهم إن هذا ما رمزت إليه الكتب المقدسة منذ القدم لولا أن أحدا لم يصدق لتطاول الزمن، ألا يعرفون أن الآلهة لا تحيا فى الزمن؟

أما أمين فقد هب من رقاده على يد قوية تهز كتفه وهاله ما شاهده فى وجه صاحب اليد من مهابة وما حمله صوته من بيان! قال

-لقد قضيت يا إنسان على أظلم الوحوش وجئت ترقد فى أمان، لم تعرف أن فى الوحش الذى قتلت عاش اعتى المردة وأقسى الشياطين، لم يقدر عليه أحد من بنى قومه وانتظر قدره على يديك أنت.

ولاح الفزع على أمين فطمأنه محدثه قائلاً

-لا توجل إنما أنا هنا لأحمل إليك آية الشكر ورمز العرفان.

وامتلك أمين منذ تلك اللحظة أسلحة لم يعرفها بشر من قبله لأنها تستخدم لمجالها أوساطا لا تراها العين ولا تتعقبها الحواس ولا

تعرف لها وسائل دفاع، ليس للكثرة أو الشجاعة أمـا مـها أى وزن أو حساب ولا شيء مما يعهده الناس مصدراً للمقاومة، وانهزم أمامه أبـو الخضر وجنوده كأنما هم عصبـة مـن الأطفـال وانمحـى مـن عالمـه الأعسر وزبانيته وكأن لم يكن لهم أى ذكر، وتبلد المنـدوه وتبخـرت أشلاؤه فى الهواء والناس ينظرون فى دهشة وتعجـب غـير مصدقيـن والتفوا من حول أمين راكعين سـاجدين يكـبرون ويـهللون لصـاحب المعجزات المتواليـة، وأصبـح أميـن ملكـا للجنـوب حاكمـا لأهلـه الأقوياء، واندفع من ثم بهم يطلـب لقـاء أخيـه فوصـل إلـى المكـان المرتقب قبله وواصل الإنتظار. والآن عليـه أن يواجهـه بمـا لا يعلـم ويتحداه بقوة لم يعهدها فى بشر لتتوحد أرض القريـة جميعـها علـى أعين الناس وشهادتهم بفراق أخيه إلى الأبد لأنه اختار مـن الكرامـة صنفا ثمنه الحياة ذاتها وليهده الإله.

وظل أمين يتقلب فى مضجعه.. الخواطر تتدافع فى رأسه والهواجس تتكالب علـى أعماقـه، وتمنـى ألا يـأتى الصبـاح، فربمـا لاح لـه فـى الظلمة نور الأمل بعد عمق الألم، لقـد ظـن أن طـول الزمـن يصـون ضمائر الرجال، ثم غلبه النعاس.

وشاهد أبو الفضل جده يزوى فى اللازمن ومادتـه تختلـط باللامكـان فصاح به يائسا

-أرجوك انتظر! لم تخبرنى بعد بما هديت إليه.. لا تتركنى حائرا فقد وعدت أن تقص كل ما حدث، بالله عليك دلنى إلى الطريق.

حسب أبو الفضل أن صيحته سوف توقظ بقوتها ورنينها المزعوم أموات البشر فى أقاصى الزمان، لكنها لم تكف فى حقيقتها سوى إيقاظه هو من رقدته، وخياله يتشبث باستماته ودون جدوى بأهداب ما حدث.

ما أن اكتملت يقظته وتأكد من علائم حجرته حتى انمحى من ذهنه كل شيء فلم يتبقى سوى سواد الذاكرة وما يلحقه من صداع، شرب قليلاً من الماء من إبريق يجاوره وتذكر وهو يعيد وضع رأسه على الوسادة ليلته السابقة ويومه المقبل فغاوده الشعور بالقلق وتمنى لو تخطفه الأحلام لعالمها العجيب من جديد.

***

الفصل الثالث

دعوى السلام

غلب النوم "أبو الفضل" من جديد ومعه بدأت تتسرب إلى نفسه ذكرى لقائه المنصرم بجده أمين حتى تبددت نهايته دون أن يطلعه على ما انتهى إليه فى ليلته العصيبة تلك وهو يطارد نهاره المقبل حاملا خفايا المجهول. وانطلقت القوة الخفية فى أعماقه تلح فى النداء عسى أن تلفته من طوايا الغيب فيفضى إليه بما يشاء، وبدا أن محاولته قد أفلحت لأن وجه رجل بدأت تتحدد ملامحه وينقشع عنه غبار التكوين وحين وضحت هيئته واكتمل تجسده ظهر مرتديا عباءة واسعة لا تخفى قصر قامته ونحافة عوده، فى يده عصا مزخرفة ومنقوشة بنقوش غريبة كأنها صولجان الحكم. واضطرب قلب "أبو الفضل" وهو يتفرس ملامح الرجل متشككا أن يكون الجد المنتظر، لقد بدأ يشعر بالإحباط وبصيرته المتلهفة تشهد سيماء مختلفة وان أوحت ببعض التشابه ثم تأكد تماما أن القادم ليس جده الأول فمن يكون؟ ربما أحد أفراد العائلة فالتشابه محسوس وان يصعب تحديده، أهو تكوين الجمجمة أم فى وضع الفكين أم العينين أو هو الأنف.. اللون والمزاج؟ أما الإختلاف فهو واضح سهل التمييز، لأن ما توحيه ملامح الوافد الجديد ليست الجسارة الناطقة فى وجه أمين أو القوة المهيبة فى نظرته والخشوع المسيطر فى محضره وإنما يشع وجهه شعورا بالارتياح وتبث عيناه هالة من المكر والدهاء وتفقد فى

محضره الثقة فى الذات وكانت ابتسامته دائما سابقة، وقال لأبى الفضل فى هدوء

-أعرف أنك تمنيت إنسانا آخر لكن القوة التى استدعيته بها لا تكفى حضوره.

فسأله أبو الفضل فى لهفة

-أنت من العائلة

أجابه بثقة

-نعم أنا بشير أحد أجدادك ومن أحفاده، كلنا نهتم بما تعانيه ونهفو للمساعدة ولكن..

قاطعه أبو الفضل متحسرا

-إذا كان هو قد تلاشى قبل أن يختتم ما مهد له وما كنت أنتظر فكيف لأحد أحفاده أن يفعل؟

ولم تغب الابتسامة الهادئة فى وجه بشير وهو يجيبه

-لا تتعجل الحكم، ستشهد فى تجربتى ما يقوى فيك نور البصيرة.. ولا تجعل الزمن مقياسك ففى عالمنا فنى الزمن وأصبحنا جميعا متساويين!

قل أبو الفضل ومشكلته تحاصره

-كانت القوة سبيل أمين لتوحيد الأرض المشتتة وجعلها ملكا واحدا وان لم أعرف كيف حسم لحظاته الأخيرة.

قل بشير فى تلطف

-كان ذلك منطق عصره وضروراته ولكل زمان منطقه وضروراته.

لا حظ أبو الفضل فى تعجب

-ألم تخبرنى أن الزمن قد فنى فى عالمكم؟

أجابه بشير

-تلك أحوال عرضت لنا وكل منا لا يزال يملكه عصره وزمانه، إنما فنى الزمن بعد أن شلت الإرادة. أنصت إلىّ فربما فهمت مقصدى.

-وهل لى حيلة أو إرادة؟!

ولم يجبه بشير وإنما انطلق يحكى كأنما كان مهيئا لتلك المهمة العزيزة، قال

-لقد كانت لحظة قاسية الوحدة فريدة فى عذابها تلك التى برزت من عمرى تحتم علىّ مخالفة النواميس والعهود لكن وحدة الأرض كانت مرامى وغايتى وكيف أنكص عن وصية الأجداد وما بذلوه فى سبيل صيانتها والحفاظ عليها؟

ثم أضاف بعد توقف قصير كأنه يخترق حواجز الغيب

-يحسن أن أبدأ من البداية ليسهل عليك الفهم، فانظر لتلمح البداية التى تناسبك.

وغام بصره فى كثافة الزمن ليستشعر البداية، فانقشع من حولها ما أحاطها من طبقات متلاحمة وأخذت تبزغ فى وعيه رويدا رويدا كأنما تخضع لإرادة جبارة. وما أن اكتمل المشهد فى عينيه حتى أذهله محتواه. أعداد هائلة من البشر ترتدى السواد النساء يلطمن الخدود والرجال يتصاعد نحيبهم إلى السماء كأنه يوم الظلمة والأحزان، حتى الأطفال بكوا بكاء البالغين دون أن يدروا سببا سوى الخوف والوحشة وجو الإكتئاب، وكانوا يزحفون جميعا نحو اتجاه واحد ببطء شديد يناسب كتلهم المتراصة المتتابعة كأنما لا نهاية لهم ويميز المنصت لتهويمهم جملة تتردد على الدوام.. البقاء لله، من لنا بعدك يا جلال!

وتلا ذلك مشهد آخر فى قاعة فسيحة اجتمع فيها بضعة رجال تبدو على ملامحهم مخايل الأهمية والبروز، ولا حظ أبو الفضل فيهم جده بشير ولم يكن من المتحدثين وإنما كان ينصت باهتمام شديد لما يدور من حديث وأرهف أبو الفضل سمعه فوهب جلاء السمع كما وهب جلاء البصر.

قال أحدهم وكان يدعى همام

-إننى لا أفهم لم يبكيه الناس هذا البكاء.. لقد تركهم أكثر فقرا وضعفا وعائلة غبور جاثمة فوق أرض الخزان تنهب خيرها وتتحكم فى مياهنا.

رد عليه رجل آخر يواجهه اسمه هزاع

-لا يهم الآن تفسير ما يجرى، الأهم لنا جميعا أن نتدبر أمرنا، شئون العائلة أصبحت بأيدينا قولا وفعلا وعلينا أن نتصرف بحذر.

رمقه جاره بجانب عينيه وقال هازئا

-نعم كنا دائما المدبرين.. وهل تبقى للمرحوم من قوة بعد معركته الخاسرة مع غبور، الدهماء فقط توهمته قويا لا يزال حاكما لقريتنا وحسبته قادرا أن يستعيد ما خسر، شىء يغيظ.

رد عليه هزاع

-الفرق كبير يا ذؤيب بين تدبير الأمور فى ظله وبعنوانه وأن نكون نحن الواجهة لكل شىء قد كان يحمينا بحب الناس له وتعلقهم به، الآن ليس لنا مثل هذا الرصيد من الأمان.

قال همام

-نعم كانوا يحبونه بجهل وجنون.

قال رجل آخر كان يجلس إلى جوار همام اسمه هديب بدا فى قوله من الحكمة ما أسر أسماعهم

-يمكننا أن نحتمى بنفس الوسيلة ونفعل ما نشاء حتى بعد مماته.

وتعلقت به أبصارهم جميعاً مستفسرين فأضاف بثقة

- بشيرا! ألم يعينه وكيلا لأعماله قبل رحيله؟ فليصبح هو كبير العائلة وعمدة الناحية من بعده ففى قبول ذلك أمام الناس إحياء لذكراه وتقديرا لنهجه واختياره وفى نفس الوقت تمضى الأمور على عهدها القديم.

قال همام

-وكيف نضمن من بشير الصمت والقبول؟

وتحولت رؤوسهم جميعا نحو مقعد بشير الذى ظل محتفظا بصمته، ثم قال داهيتهم هذيب بعد لحظات

-صمته مضمون، فلو كان من المتحدثين لأفاض بالكثير من قبل، أما قبوله لهذا الوضع فيمكن مساومته عليه.

ونظر فى وجه بشير يستطلع أثر قوله فلم يعثر على أثر كأنما كان ينظر فى لوح من زجاج ودهش لهدوئه وعدم مبالاته وكأن شيئا لا يعنيه، فاندفع هزاع سائلاً

-ما رأيك يا بشير لماذا لا تنطق، نحن نعرض عليك منصب العمدة بما أنه عينك وكيلا قبل وفاته.

وأضاف همام

- نعلم جميعا سبب تعيينه لك وأنه لم يكن فى حسبانه سوى لفترة قصيرة لكن المنية وافته.

وأكمل ذؤيب فى صراحة ما يفكرون فيه قائلا

- سوف نحترم اختياره وندافع عن شرعيته بشرط ألا يكون لك أى تصرف فعلى فى شئون العائلة من أرض ومال وعلاقات بدون موافقتنا!

وأردف هديب مخففا من وطأة صراحتهم

- إن شئون الحكم ثقيلة وعبؤها هائل الإحتمال والتركة المعروضة مثقلة بالمتاعب، فنحن موتورون ومعظم أملاكنا مرهونة وأرض عزيزة علينا مغتصبة.. سوف نحتمل نحن الصعاب وما عليك سوى الظهور بمظهر الشجاع.

وأخيراً تحدث بشير فقال وهو فى غاية الهدوء والرضى

- هذا ترتيب جميل يفوق المأمول، وكما أشار ذؤيب علينا أن نبدأ بإعلان شرعية الاستمرار.

وتلاقت أعينهم جميعا فى نفس اللحظة وفى أذهانهم يمرق خاطر محدد أن "بشير" كان يصغى لحديثهم باهتمام مخيف، ثم انمحى من وعيهم هذا الخاطر الطارئ وهديب يبتسم ويقول

-عندك حق يا بشير فتلك أهم خطوة لنا جميعا والانتهاء من إنجازها فى أسرع وقت أفضل الأشياء سيعلن همام لاجتماع مجلس القرية خلال أيام ويتم فيه تأكيد ولايتك وحلف يمين الولاء..

قاطعه هزاع قائلا بحذر

-ألا يجدر بنا أن نحلف يمين الولاء فيما بيننا أولاً؟

قال ذؤيب

-من يخون تحل عليه اللعنة!

قال همام

-المواثيق الغير مكتوبة أصعب على النقض.

فأنهى هديب الحديث قائلا بصراحة حاسمة

-لا سند لبشير سوانا، إذا تخلى عنا تكون نهايته، أهل القرية لا يعرفون عنه غير ما يكره، ويكفى مقارنته بجلال من موقف هزيل، ميزته الوحيدة أنه استخلفه وهذا حظ يكفيه فى ظروفه.

ورد بشير فى استسلام مقنع لمستمعيه

-هذا دستورنا جميعا وأنا به رهين.

وفهموا جميعا أنه يقصد اتفاقهم معه.

وأعلن على الملأ ولاية بشير، وبالرغم من أن القوم توقعوا أن يتولى أمرهم أحد رجال جلال البارزين إلا أن موافقة الجميع على

قبول الترتيب بما لا يعرض دستورهم للخيانة أشاع جوا من الطمأنينة حتى ولو كان الاختيار لرجل أبعد ما يكون عن خيالهم فالأمر فى تلك الظروف أن يطرح الصراع ويرتقى الجميع لمستوى المسؤلية ومواجهة الموقف المفرط فى الحساسية.

ومن العجيب أنه فى تلك اللحظة التى أمّن فيها علية القوم على اختيار بشير للولاية كوضع أمثل لاستمرار نفوذهم وسيطرتهم على مقادير الحياة فى القرية، آخذين فى حسبانهم قدرتهم التى لا يرقى إليها الشك فى تطويعه وتحريكه كيفما يشاءون استنادا إلى ما يعهدونه فى شخصيته من الجنوح إلى المسالمة ومن ناحية أخرى قبول الناس له على مضض، إلا أنه فى تلك اللحظة الفريدة فى عمره شعر أنه أقرب ما يكون لمصاف العظماء من أجداده وأن القدر قد هيأ له مقعده من التاريخ العريق، ولم يفكر كثيرا إن كان فى قبوله لترتيبهم مساس بكرامته أو انتقاص من قدره، أو أن النفوذ الحقيقى لإدارة شئون البلدة بأيديهم وما هو إلا واجهة.. كل ما تدبره بعناية فى تلك اللحظة وفكر فيه كثيرا شرعية ولايته، فمنها يستمد أجداده حقوق القوة وكان مولعا بتاريخهم من هذه الناحية، فكيف لا يسعد وهى مقدمة إليه خالصة وطريقه نحوها يمهده الآخرون بهمة وقبول.. فكيف يأبى ترتيبهم مهما يكون؟

ولما سأله صديقه مندور القريب إلى فكره قائلا

-إنهم بهذا الترتيب جردوك من أى نفوذ بينما تتلقى أنت لوم الناس، أليس فى قبولك لهذا الوضع القضاء على مستقبلك خلال شهور؟

أجابه

-أنت محق تماما فى مخاوفك، لكن معارضتى لهم مهما كانت ضعيفة كانت ستقضى على هذا المستقبل فى لحظات وليس فى شهور.

فسكت مندور عن عدم فهم وشعر بشير بحيرته فاستأنف يقول

-إننى الحاكم الشرعى ولو لعدة شهور.

عاد مندور يسأله متحيراً

-وماذا تعنى الشرعية وهى خالية من النفوذ والقدرة على اتخاذ القرار؟

أجابه بثقة وطمأنينة غريبة.

-معناها شرعية القرار يا مندور وما يسبق ذلك لا يدركه الناس.. عبؤه علىّ وحدى.

قال مندور بعد صمت غير قصير

-إن كنت قد فهمت حديثك فمهمتك صعبة وتكاد تكون مستحيلة، فقد عقدت اتفاقا مع رجل فى منتهى الشراسة والدهاء وأنت بينهم وحدك.

ضحك بشير ضحكة غريبة فيها مزاح وجد، سخرية وإهتمام، آلام دفينة وقوة صبر هائلة ثم قال

-إنهم لا ينظرون نحوى نظرتك، وتلك من مساوىء الصداقة المخلصة!

قال مندور باهتمام

-لكل شىء وجهه القبيح إذا اتجه إليه النظر بزاوية معينه.

فاستدرك بشير قائلاً

-لقد قصدت مناوشتك.. وفى الحقيقة هناك ما تستطيع تحقيقه لمساعدتى فى الإقتراب من الهدف.

وأنصت إليه مندور باهتمام وهو يوضح مطلبه قائلاً

-أريدك أن تنشر بين الناس ما يذكرهم بهزيمتهم أمام عائلة غبور وعلاقة تلك الهزيمة بهؤلاء الذين لا يزالون يحكمونهم ولكن بحذر ولباقة، وفى نفس الوقت تحدث عن "بدير" بالتقدير واظهر مزاياه الحربية مشيراً بطريق خفى لاختلافى معه فى الرأى والعقيدة.

نظر إليه مندور مليا ثم قال

-أنت تهدف إلى "هزاع" بكل تأكيد؟

أجابه بشير بحذر

-أنا لا أقصد أحدا.. وإنما سأحاول استخدام قوتهم طالما جردونى من أية قوة.

وانتظر بشير وقتا كافيا حتى اختمرت فكرته وتشبع الرأى العام بالغضب المكبوت المنذر بالخطر فبدأت الأصوات تعلو مطالبة بالتغيير والمحاسبة، حينئذ طلب من مجلسه الاستشارى الاجتماع فى وقت مفاجىء بطريقة درامية للنظر فى مسائل بالغة الخطورة، وبدأ حديثه قائلاً

-طلبت الاجتماع بكم لأن الوضع الداخلى يتفاقم بصورة مفزعة كما أظنكم تعلمون، والناس لا حديث لهم غير التشكيك فى مقدرتى على إدارة شئون القرية وهذا ضد مصلحتكم أيضا إلا إذا كنتم ترتبون لإحلال أحدكم محلى ونقض اتفاقنا.

وتبادل الحاضرون النظرات الفاهمة ثم تحدث هديب قائلا

-نحن لا ننوى نقض الإتفاق طالما حفظت العهد، ولك الحق فى الخوف على نفسك من كراهية الناس.

رد بشير مسرعا

-سوف تصلكم أيضا نيرانهم، وإن كنت أعترف أن خوفى على نفسى وأهلى.

تدخل همام قائلاً

-الجماهير بطبيعتها تميل إلى المبالغة ثم يصدقون أنفسهم

قال ذؤيب

-أعتقد أن الموقف يتسم بخطورة ما على كل حال ويجب أن نفعل شيئا يخفف من غلوائه.

شعر هزاع بالحرج فحاول الدفاع عن موقفه قائلاً

-إنها ليست المرة الأولى التى يثور فيها حديث الهزيمة والخيانة، وإذا شدد "ذؤيب" قبضته على الناس ستنخفض الأصوات وتخبو شجاعة أصحابها.

فقال ذؤيب معارضا

-زيادة الشدة فى هذه الحالة قد تفجر ثورة وأرى أن نميل إلى قرار حصين.

قال هديب وكان مستغرقا فى التفكير

-لا بد أن نسمح للبخار الزائد بالنفاذ والتسرب دون أن يحرقنا.

وأدرك هزاع أن الحلقة تضيق عليه فقال مهاجما

-وكيف نستئمن قوة الدفاع عن القرية لأحد من خارجنا، إن ولايتى عليها لا زالت حصن أمانكم هذا ما تؤكده السنين السابقة، كما أننى لم أفعل شيئا فيما مضى إلا وشاركتم فيه بالرأى والمشورة؟

قال هديب بمكره المعهود

-عندك حق، لكننا فى حالتنا هذه لا نخير عليك أحدا، وإنما نحن مجبرون على إتخاذ قرار بأقل التكاليف ومن مصلحتك أيضا يا هزاع أن يستمر اتفاقنا.

وأيده ذؤيب وفى صدره تتراقص فرحة التخلص من رفيق قديم كأنه من عصبة شياطين

-ومهما يكن القرار فامتيازاتك ووضعك بيننا لن يمس وستظل بحمايتنا الكاملة.

وتوجس هزاع من معنى الحماية الكاملة عند ذؤيب فقال موجها حديثه إلى هديب

-إن كانت مصلحة الجماعة تقتضى إبعادى فترة من الزمن فالأفضل أن أغادر القرية بأهلى حتى يخفت الضجيج.. أنت تعرف أن ما خفى كان أعظم.

وهنا تدخل بشير فى الحديث قائلاً

-ليس من الحكمة أن يغادر هزاع القرية بأهله خاصة فى هذه الظروف لأن ذلك سيؤكد الاتهام ويفسح مجاله، كما أن مجرد ابعاد هزاع لا يحل المشكلة.

وفهم هديب مقصده وغاب فى تفكير عميق ثم قال والقسوة مرتسمة على وجهه منعكسة على وجوه الحاضرين

-يبدو أن "بشير" قد بدأ يفهم قواعد اللعبة لكنه حينئذ يجب أن يفهمها جيدا، فليس من قواعدها الرحمة.. اسمعونى جيدا خاصة أنت يا هزاع، أرى أن يصدر بشير قرارا بمحاكمة هزاع، بالطبع محاكمة صورية يتولاها بعض رجالنا للتحقيق فيما ينسب إليه من اتهام بالخيانة ولتكن تلك المحاكمة سرية لدواعى الأمن ولفترة غير محدودة فينساها الناس، على بشير أن يصدق أيضا على قرار بتعيين رجل جديد مكان هزاع يعكس احترامنا لرغبة الأهل..

قال ذؤيب غير قادر على مغالبة سروره

-أوافق على هذا الترتيب ولكن ليس لبشير أى حق فى اختيار الرجل الجديد.

أيده همام قائلاً

-هذا أخطر من أن يترك لبشير.

قال هديب مفاجئا كعادته

-سوف يتخير هزاع خليفته فهذا حقه علينا.

وذهلوا جميعا بما فيهم بشير الذى خفق قلبه خوفا أن يتهاوى ترتيبه فى تلك اللحظة الطائشة، ونظر هزاع إلى هديب نظرة من لا يفهم وتسائل ما الذى يهدف إليه هذا الداهية لكنه وجدها فرصة سانحة ليفرغ كراهيته لبشير الذى استطاع أن يؤثر فى فكر هديب فقال واثقا

-لا أحد أكفأ من بدير يتولى مسؤولية الدفاع وإن كان لا يدين لأحد بالولاء لكنه مقابل ما سيمنح من جاه يمكن مساومته.. أما أنا فيجب أن يرتب لنزوحى من القرية فى الوقت الذى يناسبنا جميعاً.

قال هديب

-لقد اخترت فدع لنا نحن تنسيق رجالنا وليجنب كل منكم نفسه الخسران.

وتم عزل هزاع وتولية بدير بتدبيرهم وموافقتهم، ولم ينتظر بشير لحظة زمن ليلتقط أنفاسه فقد كان على يقين من أنها مجرد خطوة صغيرة فى طريق طويل لا يعرف نهايته.. واجتمع مع بدير فى اجتماع سرى دبره ورتب له مندور وإن لم يحضره بناء على نصيحته.. قال بشير فى وضوح لا لبس فيه

-أعرف إخلاصك لقضية بلدك يكافئه قدرتك الهائلة على العمل، شيء واحد تضعه نصب بصرك طوال الوقت، أن تصبح لنا القوة المطلوبة لدحر غبور واستخلاص أرضنا منه، وإزاء هذا الهدف سوف تلبى كل طلباتك من المال والرجال، لا تدع شيئا يلهيك ورجالك عن يوم استرداد الحق مهما لا حظتم من تفكك وخنوع، واعلم أن هذا اليوم أقرب مما يظن أى أنسان.

قال بدير

-بالرغم مما أشيع عن كراهيتى لك ونفورى من شخصك إلا أنه غير حقيقى، بل إن تقديرى واعتزازى بالعمل معك هائل.

قال بشير

-نعم أعلم ذلك ولكن لم يكن هناك غير هذا الطريق!

ولم يفهم بدير المعنى الذى قصده بشير وأطرق مفكرا ثم قال

-أنت تسعى إلى النصر بيقين.

قال بشير

-دع ما أشيع عنا ينتشر دون مقاومة حتى حين، ولا تكثر من زيارتى.. سمّ أخلص رجالك للاتصال بى عند الضرورة.. مهما حدث ليكن ولاؤك ورجالك لبلدهم.

-على هذا أعاهدك يا سيدى ولينصرنا الله ويحميك.

وبدأ بشير يشعر بالقوة وأن الأغلال التى رسف فيها فكره قد خفت، لأن حمى القرية وقوة الدفاع عنها أصبح خاضعا لتقديره دون أن يدرى آسروه، وكان السؤال الأعظم أمام فكره كيف يحرر الناس من خوفهم ويفجر فى أعماقهم طاقة الإبداع والابتكار، كيف يرفع عن بصائرهم غشاوة الاستهتار ويزيح عن نفوسهم ظلمة اليأس والقنوط؟ لابد من الإقدام على خطوة حاسمة تعيد إلى روؤسهم إتزانها المفقود وإلى قلوبهم أمانها المسلوب، وأخذ يتدبر الأمر فغاب فى تفكير عميق كأنما يستلهم الأقدار، ولا يدرى كم من الوقت مضى وهو حائر فى عالم من الاحتمالات والممكنات يتقصى كل منها حتى نهايته ثم يبدأ من جديد، ثم شعر بأنامل خفيفة حانية تتحسس كتفه فانتبه من استغراقه على صوت زوجته وهى تخاطبه

– لقد آذن الفجر بالطلوع ولازلت منفردا فى مكتبك.. أقلقنى غيابك.

وقرأ فى وجهها الحنان والعطف ومودة صافية طالما أظلته من حرارة الدنيا الحارقة، ثم أجابها بصوت يثقله الإجهاد والرغبة فى الراحة

– لن أشعر بالراحة يا جليلة حتى يتحقق لقريتنا عزتها وتسترد كرامتها.

فقالت بفهم

-الأرض.

-نعم أرضنا المغتصبة.

-لكنك تعلم أن عائلة غبور تتسم بالشراسة والغطرسة ويمتلكون المال والسلاح وهناك من يساندونهم ونحن فقراء وضعفاء.

-لسنا فقراء أوضعفاء.. نحن مقهورون ومكبلون.

وسكتت لعلمها أنها مست أكثر أعصابه حساسية لأنه لا يقل عن أهل القرية شعوراً بالتبعية والقهر بالرغم من أنه حاكمهم الشرعى، وحاولت أن تخفف عنه همه فقالت

-لعل فى تنحية هزاع ومحاكمته بصيصا من الأمل.

رد عليها قائلاً

-لا أمل حقيقى إلا بتحرر الناس ومحو خوفهم، وفى وجود هديب وذؤيب وهمام وأمثالهم لن يثق أحد فى غده

وبدأت تلمح شيئا خطيرا يوحى به كلامه فقالت تنبهه

-زمام الحياة اليومية بأيديهم وضغطهم على الأعناق بلا تسامح، ولا تنس أن بدير أيضا من اختيارهم.. انهم يسيطرون على كل شىء.

ونهض بشير من مجلسه ووجهه ينطق بتصميم غريب وعزم لا يلين وان زايله آثار السهر والتفكير المستمر، ثم قال لزوجته وهو يتجه لمخدعه مثيرا فى نفسها الأمل

-لا تنس أنت أن الشرعية بيدى ولن يقبل الناس بغيرها مهما ضعفوا.. ذلك هو السر.

وفى اليوم التالى توجه بشير إلى مجلس القرية وأصدر أمرا بإجتماع المجلس فى المساء على غير موعده، ولما كانت تلك الاجتماعات تتحدد من خلال اجتماعات مجلسه الاستشارى المكون من الحكام الفعليين فقد أذهلهم الخبر حين وصلهم واعتبروه سابقة خطيرة وقرروا أن يتقابلوا ليناقشوا ويتدبروا ما وراء اندفاع بشير ومخالفته لتعليماتهم، وتحدث ذؤيب مبتدئا

-حين أخبرنى رجالى المندسين هناك بتلك المعلومات لم أصدقهم حتى تأكدت من مصادر أخرى، لا يمكن أن نسمح له بالاتصال بالمجلس منفردا فقد تسنح له فرصة الانقضاض.

حاول همام أن يهون قليلا من الأمر فقال

-انها سابقة لا شك، ولكن كافة مفاتيح القوة بأيدينا فلا داعى لتوجس الشر.

رد عليه ذؤيب

-فى عالم الأمن الداخلى لا بد من القضاء على مستصغر الشرر بنفس اليقظة والشدة المطلوبة لمعظمه.. ما رأيك يا هديب؟ لا بد من مواجهة هذه الجرأة.

قال هديب مؤيداً

-أراك على حق، فمهما كانت القوة الفعلية بأيدينا يجب ألا نترك له أى قدر من حرية الحركة ولو كان تافها حتى لا يشعر بمكانته فيطمع فى نفوذها.

قال همام

-هل نتخلى عنه فيسقط هاويا؟ قد كان يريحنا لانعدام طموحه وضعف شخصيته وفى نفس الوقت شرعية استمراره، كيف نحصل على بديل بهذه المواصفات وبسرعة كافية؟

قال هديب

-يجب ألا ننسى أن بدير حديث عهد بمنصبه وولاءه الظاهر لنا غير مبرهن عليه.. يبدو أن توارى هزاع عن مسرح الأحداث أفقدنا بعض الثقة.

قال ذؤيب

-لا خوف من بدير من محالفة بشير، نحن نعرف كراهيته له.

قال هديب بعد إطراقه طويلة

-إذن لابد من الرد بقوة ولو أدى الأمر لسقوطه.

قال همام باهتمام ملحوظ

-ماذا تقترح؟

أن نجتمع به قبل انعقاد المجلس الذى دعا إليه ونعلنه با نسحابنا من اتفاقنا معه لو أصر على موقفه.

أيده ذؤيب قائلاً

-فإذا تراجع إزاء هذا التهديد سقط فى أيدينا أضعف مما كان وخسر أى رصيد لدى الأهل.

قال همام

-وإذا أصر أو حاول المناورة تركناه للفوضى تقضى عليه.

قال هديب مؤكدا

-حينئذ نعد أحد رجالنا للاستيلاء على مركزه بالقوة مبررين ذلك للأهل.

قال ذؤيب منبهاً

-يستدعى ذلك الترتيب مع بدير.

قال همام

-الوقت ضيق لإتمام تلك الخطوة.

قال هديب

– تلك نقطة الضعف لكننا سنحتاط لها فور انتهاءنا من بشير.. الوقت هو العنصر الوحيد الذى يحكمنا فى هذه الظروف وسوف نقهره.

وكان "بشير" فى هذه الأثناء يعد نفسه للإجتماع الذى استلهم فكرته وفحواه بعد تأمل وتدبير وحسب أنه سيفلجىء العصابة بالإعلان على الملأ قرار الإفراج عن كل مظلوم احتجز لاختلاف الرأى أو لشهوة الانتقام وسوف يبدأ هدم تلك الدار التى خصصت فى طرف البلدة لحجبهم عن أهليهم وسومهم صنوف العذاب بثاً للخوف والرهبة بين الناس وكبتا لحريتهم، ليكون ذلك رمزا لتحرر الإرادة من خوف مقيم. وكان يشعر بزهو شديد وهو يفترض لنفسه هذا الموقف المميز دفاعا عن الحرية، ولسوف يجبر الزبانية حينئذ للامتثال لقوله مهما كانت قوتهم فلا أحد يستطيع أن يقهر إرادة الجماهير، وأخذ ينظر فى المرآة مهذبا لهندامه متأكدا من حسن ملبسه، وإذا برسول يأتيه برسالة عاجلة من هديب، عليه أن يحضر من فوره إلى مجلسه الاستشارى المنعقد لبحث أمر خطير، وتدبر نفسه بسرعة كسبا للوقت وطلب من الرسول إبلاغهم أنه فى طريقه إليهم، ولكنه ظل مترددا أيذهب إليهم ويتعرض لما لا يعلم من تدبيرهم أم يتوجه من فوره لمجلس القرية تبعا لخطته الأصلية. وكان يميل إلى

الرأى الثانى لأنه اعتمده ورتب له، أن مواجهتهم الآن بعيدا عن الناس ومن قبل إعلان قراراته يسبب له قلقا عظيما، كما أن إهمال إنذارهم له بالحضور قد يوفر لهم قدرا من الحيطة والتنبه من قبل أن تحين ساعة الصفر.

وظل فى حيرته والوقت تتسرب لحظاته فى سرعة عجيبة لا تمهله طمأنينة القرار بل تدفعه دفعا لاختيار لا يبدو فيه أى اختيار.

وقادته قدماه إليهم بوحى المغامرة أو المقامرة فقد كان السير على حافة الآبار من هوايته وقواعد تفكيره العجيبة معتقدا أن لحظة الخطر أكثر اللحظات شحذا لفكر الإنسان وقدحا لذكائه وبديهيته، وكان من يشاهده يمارس تلك الهواية الغريبة يظن به بعض الجنون، كان لابد من إضاعة الفرصة عليهم وإفساد أى تدبير يدبرونه قد يفسد خطته، كان لابد من كسب الوقت المتبقى حتى تحين اللحظة المتفق عليها مع بدير ورجاله، هذا واجبه.

ولما وصل إليهم لمح الاضطراب والقلق وافتقد فى محضرهم تلك الثقة المتناهية وأدرك أن أمرهم ليس تحت سيطرتهم تماماً كما هى عادتهم، واستغرق عقله فى التفكير حتى اهتدى إلى أن الوقت يجرى لصالحه فهو إذن ليس فى صالحهم وتلك هى المسألة، وانتبه على صوت هديب متحدثا بصوت لا يخفى توتره

-لقد اتخذت قراراً هاما دون أن تستشيرنا، عليك أن تتراجع عنه فورا وسنفترض أنه لا يعدو أن يكون نزوة أو فكرة طائشة.

وأضاف ذؤيب بتهديد واضح

-لا تظن أنك تخطو خطوة دون أن نترصدها، عيوننا فى كل مكان ورجالنا أخفى من أن يعرفوا.

فنظر إليه بشير نظرة بلهاء ثم التفت إلى همام وهو يؤكد تهديد إخوانه

-التراجع هو فرصتك الوحيدة وإلا ينهار كل شىء فوق رأسك وينتهى أمرك أما نحن فسنجد من يحل محلك، سوف نعلن على الملأ انفضا ضنا من حولك وتصلك استقالات جماعية منذرة بانهيار حكمك وان استطعت فاضمن لكل فرد فى البلد أمنه.

ثم عاد هديب يقول مهدئا قليلاً من روعهم

-إننى لا أظنه بتلك الحماقة فيراهن بحياته وحياة أهله، سوف نغفر له هفوته.

قال بشير محاولا استدراجهم

-حتى لو وافقتكم وتراجعت إلى ما تشاءون فرهانى على الحياة قائم، بل هو أشد خطورة.

تلاقت أعينهم جميعا ولسان حالهم يعبر عن دهشتهم.. إنه يفهم، وأدرك هديب أنه يماطلهم الحديث فقال بلهجة مترددة

-إذن فأنت تتحداناً ليكن يا بشير لقد قطعت على نفسك خط رجعة.

نهض بشير وانصرف مسرعا لاجتماع ممثلى القرية الذين كانوا يتقاطرون من كل أنحائها يحركهم الفضول والغضب، وبدأ حديثه إليهم مستعرضا حياة سلفه العظيم جلال وما جاد به من عمر فى سبيلهم وكيف تكاتف الأغراب ضده وتربصوا بفلسفته ومبادئه فحاقت به المصائب، ثم أسلمه الزمام وهو رفيق نضاله ليصحح ما فسد ويحرر ما اغتصب من أرض.. ثم قال وقد أفاض فى مقدمته

-إن تصحيح ما فسد وتحرير ما اغتصب لن يصير ما لم تتحرر إرادة كل فرد منا ويشعر بحريته وأمنه وكرامته فى موطنه.. لا بد من هدم رموز الخوف لتنطلق العزائم وتتوحد النوايا.. لابد من نزع أى شك فى قدراتنا لنقضى على أسباب الخور وتتهيأ الضمائر لبعث جديد..

هيا معى إلى الدار الملعونة لنهدمها ونقيم على أنقاضها رمزا للحرية لن يقهر ضعيف بعد اليوم ولن يسلب حق ولتحيا كلمة القانون.

كانت الكلمات تفيض من فيه كأنه ينشدها شاعرا بروعتها وأثرها، لم يعبأ باحتمالات اللحظة التالية، فالقلوب الحية أحاطت به ونبضت بنبض الوطنية والبطولة فيه.

وكانت تلك اللحظة هى مولد زعامته الحقيقية بعد شهور من شرعية تفتقر إلى رصيد القناعة فى نفوس الناس. وعاد إلى مكتبه ليلا ليجد "بدير" فى انتظاره مهنئاً ومطمئناً وهو ينقل إليه أخباره قائلاً

-احتجزنا كل منهم فى داره وأحطناهم بحرس شداد ومنعنا عنهم الإتصال بأى فرد لحين ترى رأيك فيهم.. اسمح لى أن أهنئك على شجاعتك فى تحدى هؤلاء الطغاة.

قال بشير بعد أن أنصت إلى محدثه باهتمام دون أن يظهر تجاوبا مع حماسه

-هل تظن أن أحدا قادر على مواجهة سخط الناس أجمعين؟ لقد وعيت ما تعنيه شرعية الحاكم ولو كانت فارغة المضمون، فهو يستطيع بها أن يخلق المعنى المفقود والهدف المأمول إذا أخلصت نواياه وصح ضميره.

-لكن هذا لا يتوافر إلا للشجعان.

-أتفق معك بأنهم جهلونى واستصغروا شأنى، وكان ذلك خطأ مستمرا..

دعنا من هذا الآن، سوف أعلن فى الصباح إقالة هؤلاء وتقديمهم للمحاكمة وتعيين آخرين مكانهم ذوى ولاء لبلدهم يعرفون ما هو منتظر فى تلك الظروف..

ثم أردف

-كيف حال الاستعداد لمعركة استرداد الشرف؟

لاذ بدير بالصمت، فقال بشير بحزم واضح

-لا يلفتكم شىء عن معركتنا القادمة التى لا مفر من الإنتصار فيها وإلا طوقنا العار مدى التاريخ.

تردد بدير قليلا قبل أن يقول

-أخشى أن كمية السلاح المتوفر لدينا غير كافية لهجوم كاسح، مع ما يتوفر لدى عائلة غبور من كم ونوع كما أثبتت عيوننا المندسة بينهم.

رد بشير فى تصميم واضح كأنما يتحدث لنفسه

-ليس بعلة الحرب فقط تكسب المعارك وإنما أيضا بالخداع.. لابد من استرداد أرضنا يا بدير مهما كلفنا الأمر.. سيتكاتف معنا مجموع العائلة غنيه وفقيره إذا صدق عزمنا وحسن تدبيرنا، اهتم

بزيادة التدريب وتطوير المناورة والتخطيط لتجتاز الفجوة. سنخوض معركتنا بما يسره الله لنا وسننتصر.

وكأنما انتقلت الثقة واليقين إلى نفسه بعزم محدثه فقال بدير

- نعم ليكن الله نصيرنا فقد شرف سبب الجهاد.

كانت المعضلة الرئيسية كما استقر فى تقدير بشير وصحبه كيفية عبور النهر واسترداد الخزان من أيدى أولاد غبور دون أن يسمح لهم بأدنى فرصة لتدميره أو تلويث مياهه لأن فى ذلك القضاء المبرم للقرية وأهلها.. هم يعرفون ذلك جيدا لهذا أحكموا سيطرتهم عليه ومراقبتهم له إلى حد السخرية من أية محاولة للعبور نحوه، ومرة أخرى اتخذ بشير من حد السخرية منفذاً للخلاص! لم يشرك أحدا فى خطته سوى الحفنة القليلة المنوط بها أمر التنفيذ لكى يضمن الكتمان والسرية المطلقة، ولم يعبأ باستهزاء قومه حين طال عليهم الأمد وقد أكد لهم إنهاء صراعهم مع غبور خلال ستة أشهر فلم يفعل.

انتبهوا له حينا لما رأوه يغد العدة وظنوا به الجد ثم رأوه يتراجع فى اللحظة الأخيرة مؤججا فى عدوهم غلواء الغرور والاستهزاء به.. ولما أعاد الكرة مرة أخرى افترضوه يخدعهم ويحيك بهم فأجمع أولاد غبور عليه يتهافتون لدحره والقضاء عليه لكنه تراجع ثانية فتأكد

لديهم دون شك جبنه عن محاولة نزالهم وهوان شأنه، وأن المسألة مجرد وقت حتى يطيح به أهله ثم يذعنون لمشيئتهم.

لأنه كان يعرف تماماً ما يفعله لم يحفل كثيراً بما أشاع قومه حوله من نكات واستهانة عدوه به كانت بالضبط رسالته إليهم. ولكن هذه المعرفة لم تضعف شعوره بالوحدة وهمها الثقيل ولم تيسر على نفسه تصديق الناس ضعف همته، فكان يطالع وجهه فى المرآة لحظات عابرة يستغرقه فيها شعور بالحزن، ثم يلتفت لواقعه بإصرار وإرادة ماضية وذاكرته تحدثه بما قرأه من سير العظماء وأصحاب الرسالات وكيف عاشوا فى عالم خاص بهم يكتنفهم غموض المجهول.

نظر إلى بدير وصحبه قائلاً

-يا بدير! يمكننا الآن أن نقضى فى أمرنا بكل الجد فهم على يقين أننا لا نملك غير الهزل.

رد عليه بدير جادا

-ما كنا وقتئذ نهزل، فالتدريب وحسن المران نصف الانتصار، رجالى ليس لهم غاية غير خوض معركة الكرامة واسترداد الشرف لا تلهيهم أحاديث البلهاء. ما أمرتنى به فى أول لقاء بيننا عهد مفروض.

قال بشير محددا وجهة النقاش

- نريد أن نحدد يوم النزال. لقد ضعفت بصيرتهم عن إدراكنا وانشغلوا بأنفسهم، وكلما عميت رؤيتهم صحت المفاجأة.

قال أحد الحاضرين

- أمامنا فرصة رائعة تتفق مع هذه الرغبة، فلديهم يوما خاصا يحتفلون فيه بأحد أوليائهم البارزين، يذبحون فيه ذبائحهم ويعلو فيه صياحهم، يذهلون عمن حولهم كلما رسخت الطمأنينة فى نفوسهم، وهى الآن كذلك.

أكد آخر

- إنه مولد الشيخ الحسير وله عندهم شأن عظيم، يأتى موعده بعد شهر من الآن، فيه تنقلب حياتهم رأساً على عقب، هذا مادل به ماضى حياتهم.

قال بشير بعد تأمل وعيناه تلمعان بشعاع غريب

- وهذا يتصادف مع ترتيبنا للحج هذا العام.

نظر إليه بدير مندهشاً

- لم نعلم بعزمك الترحال لهذا المكان العظيم

قال بشير باسما

- لست وحدى، أنتم أيضا معى أو بعض منكم.

ثم أضاف فى خبث

- بالطبع هذا ما سوف نذيعه ونشيعه بين النـاس فـلا نـترك لـدى أولاد غبور أدنى شك أننا ننوى النزال، ثـم ننقـض عليـهم وهـم فـى غفلة من أمرهم، نسترجع الخزان وما نـهبوه مـن أرض، نمسح عـارا ونسترد الكرامة وما تجلبه من عزة الحياة.

قال بدير بحذر

- الرجال فى انتظار اليوم الموعود ليصلحوا ما فسد، أصبـح قليـل السلاح فى أيديهم فاعلا، ولرب قلة تقدر عليها خير من كثرة لا تطيق تطويعها.

فهم بشير رسالته وطمأنه قائلاً

- لا تخف.. الله معنا ولتنتظروا إشارة البدء.

مضت الأيام الباقية تصهر عزيمة الرجال فـى بوتقـة الإرادة وصنـع المصير، تشحذ من هممهم وتؤجج فيـهم روح النضـال، واسـتطاعوا فى خفاء أن يؤدوا تجربة حقيقية لعبور النهر فى أوعر أجزائه وأشدها فتكا بالإنسان لمـا تحويـه مـن وحـوش وكواسـر أو جدتـها الأقـدار وأضفى إليها الإنسان ضفاء الطلاسم والشياطين، ولكن فى كل خلـق سر فنائه ولكل طلسم سر زواله، حين تصفو الرؤية وتصدق السـريرة بسند من الحق، حينئذ يقهر الإنسان مخاوفه ويقبل لأداء رسالته.

كان بشير يمر بحالة وجدانية نادرة تتسم بشفافية عقلية ونفسية اختلط فيها وعى الضمير بيقظة الواقع، تلك اللحظة التى يساند عندها المنطق شعور بالقوة والثقة يجفل منها ويتعالى إذا اختلطت بسياق الزمن المعتاد حتى صديقه مندور القريب إلى فكره عجز أن يستوعب فحواها وهو يحاور خطواته المقبلة، قال مندور بحذر الحساب والاحتمل المجرد

-ما ورثته عن جلال من تركة مثقلة بالهموم لا يؤاخذك الناس عليه، وإنما القوم لن يحتملوا مزيدا من النكوص والذل، والإقدام على الهجوم دون فوز مؤكد يحمل فى طياته تلك المخاطرة.

نظر إليه بشير فى هدوء وقال

-لهذا لا يصلح المفكرون لقيادة أمة، الفوز لا يؤكده الحساب وإنما تستبشره من طوالع الغيب وهو ما يلهمه إدراك يفوق العقل الحاسب.. إن تدفق الحدث يفضى لتلك النتيجة إن شئت المنطق.

وبدا أن بشير فى صفائه الذهنى لا يرفض حوار صديقه الذى أضاف

-الواقع لا يصح بأى حال مع التسليم بخصال الشجاعة والتضحية.. أولاد غبور يمتلكون قوة طاغية ومحاولة استفزازهم تعطيهم مبرراً كافيا لاستخدامها بشراسة دون لوم من الآخرين.

-إنك لن تصدقنى إذا قلت لك بأن كل ما أستعد له يخضع لمنطق حساب وليس نوعا من المقامرة، لكننى أضفت إلى القواعد الشائعة ما يجعل حسابى موجبا دون خلط أو لبس.

-ولكن هناك قواعد ثابتة لا محيد عنها وهى تسود برغم كل شىء، لقد قرأت كثيرا فى تاريخ البشر.

-يا مندور من تلك القواعد ألا تفرط فى حق مهما غلت التضحية. إننى متفهم لقلقك أن يكون استعدادنا كافيا لملاقاتهم هذه المرة، ذلك لأنك تنظر بالعين المجردة كطرف محايد، لكن نظرتى تختلف وكذا تقديرى وما عقدنا العزم عليه سنفعله إن شاء الله، ما أرجوه ألا تشيع نظرتك فى عقول الناس حتى لا تؤثر فى عزمهم.

ولما غادر "مندور" مجلسه اقتربت منه زوجته تستطلعه الأمر فهى تعلم عمق حواره مع صديقه وأثره عليه، فقال لها بهدوئه المعتاد وسكينته الغالبة

-الأمر صعب عليه لأنه يعرف أكثر من غيره وذلك أحيانا مصدر ضرر لصاحبه. لكننى لا أشك فى ولائه، لو أن "بدير" مكانه لتغير الأمر.. حينئذ كنت أستبدله على الفور.

-طمأنينتك تشع فى نفسى سكونا واثقا فامض على بركة الله.

على الناحية الأخرى كان أولاد غبور فى حيرة من أمر هـذا البشـير، فرغم وفرة المعلومات التى تواترت إليهم من عيونـهم المنبثـة فـى الإقليم بأن شيئا هائلا يعد له، إلا أن تكرار تلـك المشـاهد مـن قبـل دون أن تـؤدى إلـى نتيجتـها المرتقبـة أعجزهـم أن يتخـذوا قـرارا ينغصون به على أهليهم حفلهم المرتقب، فحجتهم لفعل ذلـك غـير واضحة، وقرروا أن يتريثوا قليلا بالرغم مما فى ذلـك مـن المخـاطرة فى إهدار وقت الإنذار مع التعرض للمباغتة.. قالت داهيتهم العجـوز وكانت مشهودا لها بالفراسة والحكم السديد

-علينا أن نسلم بأن هناك شواهد تدعوا إلى القلق، لكنها ليسـت كافية لنتخذ قرارا بمطاردتهم، خاصة وقد فعلوا ذلك مرات مـن قبـل.. إن بلاهة بشير ليست إلى الحد الذى يلقى بنفسه إلى التهلكة، وهـو يعلم جيدا ما ينتظره إن حاول العبور إلينا، وقد رأى ما حـدث لجـلال من قبل وكان أكثر منه قوة وأشد صلابة وتمكنا بين أهله.

أضاف أحد خلصائها

-لن يغفر لنا أهلونا إن أفسدنا عليهم عيدهم دون سبب وجيه.

قال أحد معارضيها :

-إذا تأخرنا يوما واحدا فى الانقضاض عليهم وإجهاض ترتيبهم.. لن نتمكن من ردعهم إذا صحّ ظنى بأنهم ينتوون أمرا، سنصبح للمرة الأولى رهن المصادفة ورد الفعل.

قال الآخر

-سيتهمنا الناس بما هو مشين ويكرهنا الأهل لتهورنا دون حجة واضحة.

-وإذا حدث المكروه سيضربوننا بالأحذية ويسخر منا الأصدقاء قبل الأعداء.

-نحن أقوياء ويمكننا احتمال بعض الخسائر على أسوأ الفروض.

تدخلت الحيزبون مؤكدة

-نعم، وان كان عدد الرجال حول الخزان قليلا اعتمادا على المدد يأتيهم وقت الحاجة، لكن لا تنسوا أن بأيديهم مفاتيح جهنم إذا اجترأ عليهم أحد.. أيضا ما شاع عنهم جعل صورهم تختلط بالشياطين وما يبتكرونه من أهوال العذاب، لن يمكن لرجال البشير أن يتقدموا مهما دفع بهم يأس الضعفاء، وإنما أزن الأمور بميزان منفعتنا وأقدم مصالح قومنا قبل أى شىء، إننا وعدنا أصدقاءنا بعدم الإعتداء ولا يجب أن نسبب لهم حرجا يضعف من شأننا لديهم، لننتظر يوما آخر حتى تتأكد الشواهد فلا يلومنا لائم.

وكانت هى نفسها اللحظة التى أعطى فيها بشير إشارة بدء الهجوم قائلا

-الآن لن يستطيعوا اللحاق بنا، سيروا على بركة الخالق.

وانطلق الرجل فجر ذلك اليوم صوب عدوهم تتأجج فيهم غضبة الكرامة وحمية الشرف الذى رسف فى ذل المهانة منذ اغتصبت الأرض واستبيح عرضها وهم يشهدون فى استفزاز وغيظ. الآن وقد اكتووا بزمن الانتظار وعذاب الاصطبار يندفعون والموت من فرط شجاعتهم يتوارى من دروبهم، فقد عزموا أن يستردوا شرف قريتهم فلا تنحنى فيها هامة أو يذل جبين.

وكان مشهد عبورهم النهر يفوق أى وصف، لقد انشقت بعرضه المعابر والدروب فى لمح البصر وكأن صفحة الماء قد انطوت بإرادتهم وانصاعت لتدبيرهم وقيل أن البعض طواها بقدميه، وتشابهت ملامح الوجوه وما يعصف فيها من قوة الحياة فأضاف التكرار للقوة الفاعلة بعداً لا يدرك مداه، فأى وحش كاسر يصمد أمام ما يجهله من صور القوة وأى طلسم شيطان يستعصى على المعرفة سندها الإيمان؟ قد كان الفجر زمنهم ومكانهم لأن حقيقتهم لها كنه الحياة الخالدة، إن سداد الخطو من سلامة البصر ولا أدل على ذلك

من صحة الهدف وأيضا وحدته لدى مجموع البشر، وفى تلك اللحظات لم يختلف أحد ولم تضل خطوة واحدة.

وتجمعوا بعد عبورهم فى نسق رائع حول الحصون المتراصة جوار الخزان مستعدين لمباغتة حراسه وتدميرها واسترداد الخزان من أيديهم، وكان بدير على رؤوس الأشهاد يتفقدهم فردا فردا يطالع فى عيونهم إصرار الانتصار وضمائرهم تنتظر منه إشارة الهجوم.

لم يكن المشهد غريبا عليهم، لقد استوعبته عقولهم وقدراتهم من كثرة التدريب ودقة المحاكاة، وانتفت مخاوف المبادأة، أصبحوا الآن وجها لوجه مع واقع طالما تلهفوا لمواجهته وتغيير حاله.

أما حراس الخزان من أولاد غبور فقد وصلتهم إشارات التنبيه والتحذير من ذويهم فى ليلة سابقة، ولكن لم يبدلهم من الأفق شىء غير مألوف، فالقوم على الجانب الآخر سادرين فى سكونهم لا يرتقب لهم صحوة، وقدروا أن التحذير أمر مألوف ومولد وليهم العظيم على الأبواب، لقد ضمن لهم براعة الصنعة أمان السرقة ولم يقيموا وزنا لموازين النفوس.. حتى انطلقت من أحدهم الصرخة الأولى فانتبه كل من فى الحصن ونشب قتال شرس كان للمهاجمين فيه ميزة المفاجأة ودعوى الحق. وقضى زهو القوة على أصحابه فأصبح كم العتاد ثقيلا ينوءون تحت وطأته ويجتث من قدرة دفاعهم

أما كيفه فبعد منالـه لـتراخى الاسـتعداد وهـول المفاجـأة، ولـم يكـن الوقت المقدر لهذا القتل كافيا لوصول مدد مـن أهليـهم كمـا أشـار بشير إلى ذلك بخبث، ففقدوا إزاء براعـة الخـداع خزائـن الغـرور. وتذكر أبو الفضل وهو يحيا تلك الملحمة مع جده بشـير مـا شـاهده من قبل وهو يقتفى أثر أجـداده الآخريـن كـارم وأميـن والشـيخ عبـد الجليل، أن القوة مـهما اسـتعصت فيـها سـبب مـن ضعـف وأنـه لا ضعـف يسـتحيل معـه المقاومـة والفـوز، إنمـا علـى الإنسـان أن يستخلص سر قوته من إيمانه المطلق بالحق وليس بما يبديـه ظـاهر الأشياء، وكانت تلك ومضة من ومضـات الوعـى الخفـى فـى نفسـه استقصاها بإلحاح ما يواجه وعيـه الظـاهر مـن صعـاب.. ثـم انشـغل الوعى بما يقصه بشير من قصص..

لم ينتصف النهار حتى كانت الحصون قد دكت وسقط معها أولاد غبور فى أيدى الرجال وقد أسلموا أنفسهم للأسر بعد أن قتـل منـهم من قتل، عاد الخزان لأصحابه بعز الكرامة بعد زمن من ذل الافـتراق. ورفرفت رايات القرية خفاقة عالية فـى مشـهد أخـاذ تهتزلـه النفـوس طربا ومحبة، وتملكت الرجال روح النضال والفوز.

وصلت البشائر "البشير" فسجد لله شكرا وخرج على أهل قريتـه يزف إليهم أخبار الانتصار فى كبرياء ونشوة

-اليوم استردت قريتنا بإذن ربها وبعزم رجالها ملكا عزيزا طال اغتصابه بحفنة من البشر لا يسعون فى الأرض إلا فسادا ولا يطمئن بهم وطن. لقد ما طلوا فى إعادة الحق طويلا متغطرسين بقوتهم، فلم يكن من استخدام القوة معهم بد، عاد الخزان إلينا ليحقق من الرخاء ما حققه لأجدادنا من قبل، وبالرغم من تهديدهم المستمر بما يملكونه من عدة حرب وسبل إبادة لو اقتربنا منهم إلا أننا أخذناهم بغتة ولم يقتل منا رجل واحد. حق لنا اليوم أن نمحو عار ما مضى من سنين، الآن أوفى لجلال دينا فى عنقى كأخ وصديق.

ضج الجميع بالتصفيق والهتاف بحياة بشير وزملائه الأبطال معبرين عن فرحتهم الغامرة وإيمانهم المطلق به، واستمر يقول بحكمته المعهودة وثقته النادرة

-لكننا لا يجب أن ننسى أن علينا المضى فى استرداد بقية الأرض فيما وراء النهر، سوف يعترضون طريقنا بكل ما لديهم من قوة وما يجلبونه من أقاصى الأرض من أتباع، لن يكون الأمر سهلا ميسورا، فالمفاجأة قد انقشع أثرها والغافل استرد يقظته، لذا فسوف أرسل إليهم برسول يدعوهم إلى لقاء سلم يردون إلينا ما هو لنا فى حوذتهم ثم يستأ من بعضنا جانب بعض خير من قتال تزهق فيه

الأرواح وتستنزف الدماء، فإذا رضوا بالحسنى وإن جنحوا للسلم فبها..

وكان الهتاف المتصل تعبير قومه بالمساندة.

وما كان لعصبة غبور ومن ساندهم أن يسلموا أمرهم لتلك الهزيمة السافرة من قوم ظنوهم فى سبات لا تقوم لهم قائمة، فأرسلوا مسرعين برجال أشداء بعدة حرب هائلة من صنعة شياطين، مقدرين أن يعيدوا اغتصاب الحق ورفع راية الظلم من جديد. ودار قتال شرس بين الفريقين تساقط فيه القتلى والشهداء، واستمر أياما متصلة لا يتوقف ليل نهار وكأن الزمان قد جفل من قسوته وتوارى من سطوته، ولم يستطع أبناء غبور رغم شراسة قتالهم أن يزحزحوا القوم عن قدر شبر مما استردوه، واضطر الرجال أمام عنف العدوان أن يرجئوا تقدمهم لما وراء النهر كما كانت خطتهم حرصا على الخزان وما يرمز إليه من انتصار، واستبسلوا فى الدفاع عنه ودحض غشم القوة العادية.

وتواصلت إلى بشير رسلهم بأنهم مستعدون للقاء سلام إذا انسحب برجاله عن الخزان وحصونه وعادوا إلى الجانب الغربى من النهر حيثما جاءوا وإلا فلا لقاء وسيفعلون ذلك مرغمين بحكم القوة.. وإنما يعرضون عليه ذلك حفظا لدماء الرجال، وقد يتم ذلك

من خلال وسيط يقبله.. بعد ذلك تطرح معاهدة أمان وسلام بينهم إذا شاء.

وكان رد بشير الفورى رفضا قاطعا، كيف يظنون به التراجع عما أنجزه ورجاله من بطولة واستحقوه فى أهليهم من سؤدد.. أهون عليه أن يموت.

توجه بشير إلى مواقع القتال الدائر مع أعدائه يتفقد أحوال رجاله ويتدارس الموقف مع بدير وأعوانه، وساد فى مجلسهم شعور بالثقة المشوب بالحذر، ولمح بشير بما أعطاه الله من قوة حدس مدهشة أن رجاله يحاولون إخفاء شىء عنه، حينئذ توجه بسؤاله مباشرة إلى بدير

-كم عدد شهداءنا اليوم؟

لم يجبه بشير صراحة وإنما قال بقدر كبير من ضبط الانفعال

-القتال يدور ليل نهار والروح المعنوية للرجال فى أعناق السماء ولا يسقط منا شهيد إلا ويقابله من قتلى عدونا الكثير، لم نتزحزح عن أرض استرددناها شبرا واحدا، وإنما يبطىء من استخلاصنا كل الأرض تكاثفهم علينا.

ثم أضاف حين ظل بشير صامتا ينتظر

- بالطبع شهداؤنا يتزايدون كلما طال أمد الحرب وتنوعت حيل الفتك، لكنه الدفاع المقدس عن الحق تهون فى سبيله الحياة.

بدأ بشير حديثه ببطء مألوف عنه حين يكون عقله هو المتحدث وليس لسانه

- لقد أرسلوا لى رسولا بردهم على ما أعلنته من رغبة فى السلام على أن نسترد بقية أرضنا، بذلك نستنقذ مزيدا من الأرواح يزهق على كلا الجانبين.

تعلقت به عقولهم قبل عيونهم تستشف ما وراء حديثه

- هم يرغبون أيضا فى سلام بعد أن ننسحب ونعود إلى الجانب الآخر من النهر ونترك لهم الخزان وحصونه كما كانت من قبل.. حينئذ يرضون بوساطة صلح.

ونظر بدير إلى رجاله فى استغراب ثم استقر بصره فى وجه بشير منتظراً المزيد دون جدوى.. فقال

- إذن فلا نفع من وساطة صلح، هم لن يرضخوا لغير موازين القوة.

رد بشير

- كلامك صحيح تماماً.

تدخل أحد الحاضرين قائلا

-سوف نلحرهم بمنطقهم مهما غلا الثمن.

لكن "بشير" كان مصرا أن يوجه بصيرتهم حيث يرتأى فقال

-تذكروا يا رجالى شيئا هاما.. لقد أرسلوا لنا رسولا وهو أمر لم يحدث من قبل، وتحدثوا عن سلام وأرض وهى أشياء لم يخلطوا بينها أبدا، ولا ينتظر أى عاقل أن يأتونا راكعين ولديهم هذه الثروة وذلك العتاد.. مطلبهم فيه من غرورهم وغطرستهم كما فيه من واقع طارىء عليهم يجهلون التعامل معه أو يتمنعون، فى الحقيقة لم أنتظر منهم أكثر من ذلك فى هذه المرحلة وهو غير قليل.

قال بدير وهو أكثرهم قدرة على فهم مقاصده

-يجب أن أعترف أننى عاجز عن فهم ما ترمى إليه يا بشير، يبدو أنه شيء جلل، لكننا لا نلمحه.

ابتسم بشير وعيناه تبثان سكينة وهدوءا ثم قال

-أرواحكم جميعا أمانة فى عنقى كما هو شرف الأمة وكرامتها.. أرضها وعرضها، ولا يجب أن تبذل روح إلا فى اضطرار دفاع عن حق وصد عدوان باطل، وإذا استبان سبيل سلام يحفظ كرامتنا ونسترد به حقنا فلم نضحى بالرجال يا رجل؟

قال أحد الرجال مشهور بشجاعته وفرط كبريائه

-ولكن ما يعرضونه يا سيدى ليس فيه كرامة ولا يسترد به حق، بل ملؤه الذل والهوان.

قال بشير

-ما تقوله حق، لكننا نستطيع إرغامهم لرؤية ما نريد حين يوقنون من استحالة ما يطلبون، إذا تقدمنا للأمام محررين مزيدا من الأرض مهما كان صغيرا مستنزفين عددهم قتلا أم أسرا، حينئذ لن يشكوا فى أننا ماضون لاسترداد كل شبر من أرضنا بكل ما يثخنهم من جراح.

قال بدير

-لقد بدأت ألمح ما تسعى إليه، لكنه يعنى المزيد من الشهداء.

رد عليه بشير بأسى

-قد نضطر إلى بذل القليل لننقذ الكثير، سوف أرسل لك كل مدد ممكن من الرجال والعتاد وما أن يصبح جليا تقدمنا للأمام حتى أرسل لهم برسالة جديدة.

أدرك الجميع أن قائدهم ينتظر منهم المزيد من الكفاح والتضحية وتحقيق التفوق على عدوهم، باسترداد مزيد من الأرض من براثنه وإلحاق أعظم قدر من الضرر به، وكان استعدادهم لتنفيذ ما يريد هائلا لأنهم أيقنوا بإخلاصه لقضية أهله، وعرفوا بصدق نظرته فى

هذا العدو اللئيم.. وانتشر أثر ذلك فى نفوس الرجال فى كل موقع فازداد الحماس والتشبس بالانتصار.

ولما عاد بشير إلى داره وجد مندور فى انتظاره تبدو فى ملامحه علائم الإنزعاج، فسأله قليلا من الوقت لالتقاط الأنفاس قبل حديث ليس باليسير كما يبدو من صفحة وجهه، وابتسم مندور موافقا وإعجابه بفراسته يختلط بقلقه، وتذكر مرغما كيف استقبل الناس ولايته خلفا لجلال بالسخرية دونما أدنى شك بأنه لن يطول به البقاء فإذا به يتفوق على كل أعدائه ويكاد يحقق لأهله أمل الانتصار، هو نفسه يعترف بأنه بخسه حقه وعجز عن فهم قدراته بالرغم من قربه، ربما لطغيان شخص جلال على الجميع. وبينما هو سادر فى أفكاره وصل سمعه صوت بشير قائلا

- إذا كان انزعاجك لموقف رجالنا فى الحرب فعليك أن تطمئن، إنى قادم من عندهم للتو وهم فى أعلى درجات الإصرار على مواصلة الانتصار.

- إننى لا أشك لحظة فى قدرة الرجال، ما فعلوه يسطره التاريخ بفخر وإكبار، لقد أنجزوا ما جفل العقل عن تقديره.

- لحساب العقل أيضا جدواه، فلا تثقل على نفسك أن جاوزته أقدار النفوس، لا أخفى عنك، وقد تحقق ما آمنت به وقدرت، أن شيئا

من القلق كان يعتمل أيضا فى ضميرى، لكن قوة خفية كانت تدفعنى قسراً للمضى، شىء يقترب من الإلهام.

-فى الحقيقة ما يزعجنى الآن هو ما وصل علمى من بعض الوسطاء أنهم يسعون لمصالحة، أخشى أن وقتها غير مناسب، ربما أساءوا تفسير رسالتك؟

-المصالحة التى تعيد كل الأرض خير من القتل تزهق فيه الأرواح وتبدد الأموال، والوقت ليس مشكلة إنما هو تصديق الواقع، علينا أن نمحو من بصائرهم أدنى شك فى إصرارنا أن نصل إلى ما نريد، وكلما كان ثمنه فادحا وموجعا لهم كلما صفت البصيرة وصدقوا ما يرون.

-أرجو ألا نتلهف لغايتنا فنضل سبيلنا إليها بعد أن كدنا قاب قوسين.

-اللهفة لا تعيب، ويجب أن نقرأ ما تخفيه السطور بحذر، رفضنا لشىء يحثنا عليه الأصدقاء يزيد أعداءنا، والقتال لن يمضى بلا نهاية.

لم يشعر مندور بأى ارتياح من حديثه وقد بدا أن أمرا ما يختمر فى أرجاء نفسه الفسيحة استعصى على مندور إدراكه، قال بعد قليل

-أعرف أن واقع القتال يفرض نفسه، لكن هناك أيضا عوامل أخر.

-ما يطمئنك هو وضوح الغاية، نحن نعرف تماما ما نريد ولا نخشى دهاءهم، أيضا لا ننتظر المستحيل.

وبينما ظن بشير أنه يفسر لجليسه ما غمض ليقلل من قلقه وحيرته، ظل الأخير أسير ما خفى.

ومرة أخرى تحقق الأقدار حدس هذا الرجل وتؤكد نفاذ بصيرته، إذ بدأ الرجال ينجزون ما وعدوه بما استردوه من أرض وان بدا ضئيلا مقارنة بما يتواتر من أعداد الشهداء، لكن قتلى عدوهم كانت فى تعاظم مع استمرار القتال. بعد مضى أيام قليلة أرسل بدير إليه تفاصيل مواقعه وحجم مؤنه واحتياطيه ليظهر له جليا متانة جبهته وصمود رجاله ويدعوه فى نفس الوقت لزيارته فهو مشوق لاستئناف حوارهم السابق. وفهم بشير أن هناك أمرا ما يحاول بدير الإشارة إليه دون تصريح به فقرر أن يؤجل كافة مهامه ويتوجه إليه من فوره. وقبل أن يهم بتنفيذ قراره أخطرته زوجته بقدوم رسول من قرية بعيدة معروفة بمساندة غبور وأنه يلح فى مقابلته على الفور، وشعر بشير بشعور خفى لا يدرى مصدره أن بين الرسول القادم من بعيد ورسالة بدير إليه صلة ما، دائما أقوى صلة بين الأشياء هى التى تحتجب عن العقل، واستوجب مقابلة الرسول تأسيسا على ذلك الإحساس الغريب.

كان الرسول يحمل إليه تلك المرة رسالة جادة لا تتخفى فيها الحيل، وهى آتية من قوم لهم نفوذ مطلق على تلك العصبة من القوم، فلا بد أن فيها من الواقع ما لا شك فى يقينه، كانت الرسالة قصيرة وواضحة" إن القتل الدائر الآن لا يمكن أن يستمر، فهو أمر يزعج كل الناحية ويهدد جميع الأرزاق، نحن نعلم أن لكم حقوقا فى الأرض، والآخرون أيضا لهم حقوق فى حسن الجوار، وقد ثبت لنا جدية دعواكم، فدعونا نتوقف عن القتال وننهى المسألة بسلام وسوف نكون الضامنين لحقوقكم إذا وافقكم هذا الترتيب شريطة أن تتوقفوا عن القتال فورا حيثما تكونون من أرض النهر، وسيفعل الآخرون مثلكم بأمر منا".

وأدرك بشير من فحوى الرسالة أن الرجال على أرض القتال قد ثبتت قلوبهم وتوحدت ضمائرهم وأنهم يتقدمون للأمام، فشعر بالفخر وحمد الله.. أن ما دبر له وخطط مع رجاله يوشك أن يؤتى ثماره.

ولما وصل إلى موقع بدير وجده ورجاله فى انتظاره فحيا الجميع تحية إكبار ثم قال

-ألمح فى وجوهكم علامات الانتصار.

قال بدير فى صراحة الجند

- نريد أمرا صريحاً باسترداد كل الأرض فهذا هو النصر الذى سعينا إليه. الرجال فى قمة اللياقة والمدد الذى ترسله إلينا يعضد من شأننا ويعوض خسائرنا.. نحن قادرون أن ننتزع كل ما وراء النهر من أرض لو نشاء.

قال بشير مهدئا

- نعم أنتم كذلك، ولكنكم تعرفون من قبل هدفى من وراء ذلك.. مدد الرجال ليس بلا نهاية.

قال أحد الحاضرين

- إذا كنا نستطيع أن نسترد أرضنا كلها بالقوة فلم نلجأ إلى المساومة، كما أنهم لم يستسلموا بعد.

قال بشير متوجها بحديثه إلى الجمع

- لقد أتى رسول قبل مجيئى إليكم يحمل رسالة من أصدقائهم فى الطرف البعيد وهى صريحة فى فحواها.. أن نتوقف عن القتال ونحصل على ما هو حق لنا مقابل أن نمنح الآخرين حق الجوار.. هم الضامنون لذلك و..

وهنا قاطعه بدير لأول مرة معبرا عن اعتراضه بوضوح

- لقد استشهد منا الكثير فى سبيل هذا الشرف فلم نتوقف دون بلوغه؟

قال بشير

-إننا لن نتوقف يا بدير، نحن نسعى لنفس الهدف بكل طريقة ممكنة، ويجب ألا نهدر أرواح شهدائنا إلا بالضرورة، لا تنسوا أن فى الرسالة تهديد مقصود، فضمان هؤلاء لحقوقنا يقابله موافقتنا على فحوى رسالتهم، والعكس يعنى الوقوف ضدنا بكل قوتهم، وهى قوة لا طاقة لنا بها بمفردنا..

وهمهم الحاضرون بعدم رضاهم على ما يقوله بشير دون تصريح بذلك احتراما له، لكن بدير شعر بأن من واجبه أن ينحاز لرجاله فقال لبشير

-إننا قادرون أن ننتزع بقية أرضنا وان استشهد منا المزيد، وقد إتمرنا بأمرك من قبل ولا زلنا فى طاعتك دون شك.. وإذا ضل منا فرد أو ضعفت عزيمته فلتسعه حكمتك، لقد عرضنا أمرنا عليك كما تراه، قوة مؤكدة تسترد كل الأرض، يدل عليها واقع الحال وأنت ستصبح البطل الأوحد لقريتنا الطيبة، لا نستطيع أن نملى عليك إرادتنا فمسئوليتك أعظم من مسئوليتنا، وقرارك الآن تتشبث به مصائرنا، كان الله فى عونك.

واستأذنوه وانصرفوا وقد أدركوا أنه فى حاجة إلى تلك الوحدة مع النفس تستشف من أستار مستقبلها ما توجه به حاضرها وحاضر من ارتبط بها من أهله بحكم القدر.

كان شعور الوحدة يغالبه وفداحة المسئولية ملقاة على عاتقه، لم يجد سندا من صديق مخلص اتهمه باللهفة والتعجل، وأعوانه الشرفاء أسكرتهم نشوى القوة وطعم الانتصار، إنهم لا ينتبهون لموازين الحياة وتداعيات القدر. القوة تفيد فى إرغام من تشاء لينظر وجهتك، لكن الاستقرار لا يحققه سوى الإقناع والقبول، وتلك فرصة نادرة أن تحقق كليهما ويسود السلام وما انتشرت الحروب إلا لانصياع الراية فى أيدى الأقوياء دون تحديد واضح لوجهتهم بينما حقيقة الفعل مبهمة فى العقول.. إنه مطمئن لما هو مقبل عليه ويعتبره نهاية مبهرة للكفاح ولكن عليه أن يجتاز قبل ذلك حاجزا أسسته العداوة فى النفوس سواء على هذا الجانب أو سواه، والبطولة الحقيقية أن تجتاز ظاهر الواقع الجاثم إلى جوهر الحقيقة الخالدة فى نفس كل إنسان، حينئذ يزول الخلاف وتتوحد الرؤى ويطمئن المصير، فهل هو قادر أن يجتاز تلك الفجوة ويعبر مرة أخرى منتصرا للإنسانية جمعاء؟

فى تلك اللحظة تململ أبو الفضل فى رقدته وأذان الفجر يتعالى فى مسامعه كأنما يناشده اليقظة فهى خير من أى نوم مهما اختلط برؤى صادقة. وما أن تمكنت من أذنيه مناشدة الصلاة حتى انتبه البصر وتفقدت السريرة دروب نفسه بين منامه ويقظته، فواقع حاله يتشبث بالمزيد من صلة الأهل وحكمة التاريخ، وحقيقة زمنه تهيئة لصلاة الفجر كما هى عادته.. وليس هناك بد من مواجهة الحقيقة مهما تأخر الزمن.

الفصل الرابع

عهد الأبناء

بعد صلاة الفجر حملت أبا الفضل قدماه على غير عادته يوم الجمعة إلى أرضه حيث افترش ثراها وغاب بصره فى سماها، وخيوط النهار تنسج ثوبا للكون يغاير ما ارتداه منذ وهلة وتهيئة لميلاد يوم جديد، فاليوم الجديد لا تأذن به ظلمة ليل بهيم وإنما يبتكره ضياء الشروق. وكانت لحظات رائعة استوعبتها نفسه فى سكينة وإجلال، بالرغم من مشاهدته لها ما لا يحصى من مرات إلا أنها فى كل مرة تبدو له متفردة وتؤكد لكل من يتأملها أنه حقا يوم جديد لا يشبه سواه مهما تعدد وتوالى على مر الزمن.

وتداعت فى ذاكرته أخيلة الليل وحوارات الأحلام فى صور متلاحقة يتشابه مبدأها ومنتهاها وتتفرد مثل خلق الأيام، الحكمة أيضا فى ظاهر الأشياء وليست حكرا فى بواطنها. وكان صفاء النفس هو أروع ما شعر به، فمن خلاله اكتسى الناس والأحداث بساطة الوجود وتلقائية الزمن، فملامح عبد الصمد أو مدين أو عطية لا تختلف عن ملامح ذؤيب وهديب وهزاع الذين تربصوا لسلفه بشير، وهم أنفسهم الذين برزوا فى ثياب هنداوى وبريقع والجهم ممن برزوا لجده كارم من قبل، وأولاد غبور لا تختلف شياتهم وإن اختلفت ثيابهم. وارتسمت ابتسامة فى عينيه ومشهد حديثه مع أمين يختلط بمشهده مع بشير ثم تنتظم ملامحهما فى ملامح أبيه الذى يحمل هو

من وصفه الكثير.. ترى كيف توحدت الأرض بين النهر بيدى أمين دون أن يبذل أخاه، وكيف استرد بشير كل الأرض من الطغاة، وكيف يمنع هو عدوان الأهل عنها وهو أقسى من عدوان الأغراب؟

ولم يشعر بالغصة التى احتكمت بحلقه وهو محصور فى يومه المنصرم، والهم الثقيل الذى ران على صدره علم أن بمقدوره محوه وإزالته.. مفتاح الأمر بين يديه والسر مكنون فى صدره، فالحلم نشأ فى دخيلته والواقع يتشكل بإرادته ولابد لبصيرته أن تدرك مداها.

وكان جليا له أن القوة هى ظاهر الحكمة كما فسرها الشيخ عبد الجليل، وكما استوعبها عنه أمين وبشير، وكما يجب أن يتدبرها بنفسه أبو الفضل ومن ماثله، نعم فجميع أهل القرية وأهله معهم لا يستطيعون إرغامه على فعل لا يقبله، هم يمتثلون لطغيان عاقبته الانهزام، مهما كان عددهم وصخب جدالهم، وهو يمتثل لحق مكتوب له الظهور وإن أصبح مدافعه الوحيد، فهو لم يزل يملك حقه المشروع فى أرضه وولده، والعدد قد يتزايد ويكثر فاقدا ذاته بينما الفرد يمتلك ذاته فيصبح خليفة الخالق.

كان نور الصبح قد انتشر وهو جالس يساوق خواطره فأضاء مرمى البصر، وغامت عيناه فى اتساع أرضه وهى مترعة بوعد الحياة والأمل الذى دوما تستبطنه أحشاؤها، وشعر بالشفقة على هؤلاء الذين لا

يرون فيها غير أسباب الوصول، لقد عجزوا أن يدركوا أنها غاية وليست سببا، وفى سبيل الغاية يتكشف معدن الإنسان.

كانت أول من استقبلته حين عودته لداره ابنته الصغرى أصيلة التى بادرته بمرحها قائلة

-أمى تعد لنا فطور يوم الجمعة، إنى أحب يوم الجمعة فأخوتى كلهم هنا.

رتب على ظهرها بحنانه المعهود وسألها

-وهل استيقظ اخوتك؟

أجابته فى تردد كأنها تفشيه سرا

-نعم كلهم حتى جميلة، ولا يزال حديث الأرض فى أفواههم، سأذهب لأعين أمى فى ترتيب الفطور.

واستطلعوا فى وجه أبيهم بشاشة ورضى وهم يشاركونه الطعام فحدثتهم أنفسهم بأنه يحمل ما يسر خاطرهم ويرضى طموحهم، للمال سحر قاهر على النفوس، هكذا خطر ببال الأبناء شاعرين بالثقة، ورضيت الأم بما شاع على المائدة من روح التفاؤل وترقب المأمول، لقد اقتاد الخيل كل منهم إلى حيث شاء برصيد من ابتسامة أبيهم وصفاء نظرته وما يوحيه ذلك من قبول. ولم يغادروا المكان بانتهاء الطعام كعادتهم وإنما انتظروا ونظروا فى وجه الأب بشغف

متلهفين لحديثه، وكان عزمه ألا يتركهم نهبا لظنونهم فحضور الذهن الآن ضرورى كحضور النفس والضمير.

بدأ حديثه محاولا الاختصار ليجنب نفسه ويقيهم ضراوة المجابهة فالمهم الوضوح وجلاء المقصد دون مواربة، قال

-كما وعدتكم فقد شغلت نفسى بما تفكرون فيه من أمر الأرض، قضيت الليل ليس فى نفسى سواها يقظة أو مناماً، هى أيضا شغلتكم كما شغلتنى، الفارق هو أنكم تتخذونها سبباً وأنا أتخذها غاية، وتلك مسألة لا يصح فيها الخلط لأنها ترتبط بسبب وجودنا، وواجبى نحوكم ألا أسلمكم لخلط محتمل، فغايتنا ستكون دائما واحدة حتى لو زاغت أبصاركم إلى حين. لقد أمضيت ساعات الصبح الأولى هناك استقرئ من أعماقها مستقبلنا وشعرت بزهو الحياة أن نظل قائمين عليها نرعاها، وهى الرباط الأبدى لأسرتنا جيلا بعد جيل، كيف أمكن منها عبد الصمد يهدر منها الحياة أو مدين يتآمر بها فى عالم الْمال، من واجبى أن أوالى زراعتها وتنميتها حتى أسلمها لكم بمماتى سببا لاستمرار الحياة، بعدها افعلوا ما شئتم، وإنى على يقين أنكم لن تفعلوا غير ما هو منتظر من ذوى فضل وشرف.

نظر كل منهم إلى الآخر غير مصدقين ما فهموه.. ثم قال كمال بلسان حال الجميع وعيناه تومضان بميلاد الرفض المشوب بالغضب

-إذن فالفرصة ضائعة من بين أيدينا ولا نملك غير أن نطيع. يا والدى أشكال الحياة تتغير وتتبدل وعلينا أن نأخذ بما رزقنا الله من أسباب والأرض إحداها، لقد أطعمتنا ولازالت، لكننا يمكننا استخدامها فى أغراض أخرى أيضا لخدمة الحياة والأحياء، ولا أرى غضاضة أن نبدلها بمال هو أنفع لنا فى أيامنا المقبلة، لكنك تصر أن تفلحها وأن نفعل مثلك من بعدك الزمن يتبدل وعلينا أن نتبدل معه.

أضاف مختار بمزيد من عصيان الفكر

-الأرض لم تزل فى نطاق قريتنا لن ينزعها من الوجود أحد سواء بأيدينا أو بسوانا، ولها جدوى إن زرعت قمحا أو أقيم عليها مصنع.. أو حتى تحولت إلى طوب.

انتقلت عينا الأب إلى حسين تنتظر ما يضيفه لأخوته، فشعر الإبن ببعض الأسى وهو يقول

-نحن نحبك يا أبانا ونفتخر بك وبما أهلتنا من أجله، وما كان لنا أن نعصيك.. نحن نستسمحك ونستنصحك ثم من بعد نسترضى

دعاءك المال المتاح أمامنا ببيعها لا يعقل تجاهله ونحن فى حاجة إليه..

قال أبو الفضل فى هدوء وشفقة

-إن كنت قد أفلحت فى تربيتكم فعليكم أن تضيفوا إليها بكفاحكم لا أن تنتزعوا منها لأسباب ظاهرة قد تبدو باهرة، ليفعل كل منكم ما يمليه عليه ضميره نحو نفسه وأهله ووطنه فقد فعلت ذلك ما استطعت.

ولم تنبس الأم بكلمة فقد فهمت من نظرات زوجها ما يكفيها الحديث. وهو لم ينتظر منهم مثل هذا الفهم فدليل الاستعداد له الآن غير ملحوظ. نهض من مجلسه وهو يحيطهم بنظرات ملؤها الحب الحقيقى، وقال لهم جميعاً

-سوف تستجيبون لنداء الحق يوماً فأنتم أبناء أبو الفضل على كل حال، وكل منكم سيهتدى لما يجب عليه فعله كما سطرت الأقدار.

ولم تصل تلك الكلمات إلى مسامعهم فمنافذ الشعور والاتصال فيهم أحاطتها اللحظات الراهنة.. قد يبدو الاختلاف فى الزمن.

الفهـــرس

	الموضوع	الصفحة
الفصل الأول :	أرض الأجـــداد	٧
الفصل الثاني :	كفاح الحـــرب	٤٣
الفصل الثالث :	دعوى الســـلام	١١٥
الفصل الرابع :	عهد الأبنـــاء	١٧١

رقـــم الايـــــداع
١٣٠٥١ / ٢٠٠٠
الترقيـم الدولـي I.S.B.N.
977 209 051- 1

مطابع الكتب المصرى الحديث
MODERN EGYPTIAN PRESS
ت : ٤٤٤١٠٧٠ — ٤٤٤١٠٧٤ — فاكس ٤٤٤١٠٧٧